

ليالي عاشوراء

السنة الثالثة



الشيخ علي حسن غلوم



٣

ليالي عاشوراء

إن أريد إلا الإصلاح
قراءة في دوافع النهضة الحسينية
لمواجهة الفساد

بقلم الشيخ

علي حسن غلوم علي

محرم ١٤٣٥ هـ



جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٣ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

هاتف : ٢٥٤٢٧٩٩٧ - ٢٥٤٢٧٦٦٧

فاكس : ٢٥٤٢٨٥٥٨

Email: alwalaa@alwalaa.com



مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

محتويات الكتاب

المقدمة	٧
١ - مقدمة حول نص الكلمة الحسينية	١٧
٢ - مفهوم الفساد	٢٩
٣ - فساد الحاكم	٤٣
٤ - الفساد الأخلاقي	٦٣
٥ - الفساد المالي	٩٣
٦ - نقض العهود والمواثيق	١١٥
٧ - الفساد الفكري	١٣٩
٨ - مسؤولية الإصلاح	١٥٧
٩ - القائمون على الإصلاح	١٧٩
١٠ - القضاء على المفسدين	١٩٥
١١ - القيادة وثقافة الإصلاح	٢٢١

المقدمة

في شهر محرم من كل عام تهيفض أفئدتنا وتشرأب أعناقنا إلى كربلاء، الأرض الطاهرة التي ضمت الأجساد الطاهرة وشهدت أسمى ملامح البطولة والفداء، وسجل التاريخ حينها صراعاً بين الحق والباطل.. فمنذ ذلك الحين وإحياءً لذكرى الثورة الحسينية ترى محبي أهل البيت في شتى بقاع العالم يتوافدون إلى المنابر الحسينية لينهلوا منها أعظم القصص والمواعظ والحكم التي سطرها تلك الملحمة البطولية.

ولقد بدأت المنابر الحسينية بمخاطبة الإنسان عن طريق الوقوف على بعض المواقف البطولية من واقع المشهد الكربلائي، فترى الحضور يذرفون الدموع حباً في الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته وأصحابه الذين غدت بطولاتهم رمزاً لكل من ينشد الإباء ويسعى إلى السير في طريق الحق.

إلا إنه مع تقدم الحضارات واتساع آفاق الإنسان البسيط وانفتاحه على التعليم، إضافة إلى القفزة الإعلامية التي حولت العالم إلى قرية صغيرة بسبب انتشار وتطور وسائل الاتصال

المختلفة بات من الضروري أن يواكب المنبر الحسيني فكر النخب الثقافية الجديدة التي ترى في المنبر الحسيني زاداً لعقولها ويمنحها مساحة للتفكير والتحليل والاستنباط.

لذا دعت الحاجة - لزماً - أن يتسلح خطيب المنبر الحسيني في عصرنا هذا بالقدرة على التحليل المنطقي والمبني على أسس علمية، وعلى خلفية ثقافية تتطابق مع ما ترنو إليه هذه النخب المثقفة، لتكون خطبه مناراً للعقول قبل القلوب، وأن يكون قادراً على التصدي لكل التشوهات التي قد تبثها وسائل الاتصال هنا أو هناك والتي قد تسعى بالدرجة الأولى إلى الثورة الحسينية.

لقد أصبح ديدن الأجيال الحالية المؤمنة بالثورة الحسينية البحث عن ذلك الخطيب الذي يخاطب عقولهم ويحاكي فكرهم ويجب عن تساؤلهم عن طريق المنطق والعلم.

ولقد وجدت أنا شخصياً - ووجد الكثير من محبي أهل البيت (عليهم السلام) - ضالتهم في محاضرات سماحة الشيخ علي حسن غلوم.. ولعلي لا أذيع سراً حين أقول أنني توجهت إلى سماحته مباشرة بعد أول محاضرة حضرتها عنده وقلت له بالحرف الواحد: (إنني أبحث عنك منذ أربعين عاماً).. كيف

لا وقد رأيت فيه ذلك الشاب الذي يتسلح بالدين والعلم معاً ويقوم من خلال محاضراته بالتطرق إلى العديد من المواضيع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بأسلوب علمي وبجرأة متناهية تخاطب مباشرة العقل والمنطق.

ولعلم سماحته بأهمية التكنولوجيا الحديثة في توصيل المعلومة، وتفهمه لاهتمامات الجيل الحالي في وسائل الاتصال المختلفة، يظهر لنا سماحته بحلة وكاريزما جديدة تختلف عن الصورة التقليدية للخطيب الجالس على كرسيه يخاطب الجلوس. فتراه واقفاً ومن خلفه شاشة العرض الكبيرة وأمامه جهاز الكمبيوتر الشخصي، فهو يخاطب عينيك وفؤادك، وفوق كل هذا فهو يخاطب عقلك.

ولحرصه الشديد على مخاطبة الشريحة الأكبر من الشباب، دأب سماحته وللعام الثالث على التوالي على تدوين محاضراته في الليالي الأولى من محرم الفضيل وإصدارها في كتيبات لتكون في متناول يد كل من لم تسنح له الفرصة في الحضور، أو من أحب القراءة المتأنية لمضمونها، وأطلق عليها عنوان (ليالي عاشوراء).

ففي الجزء الأول من (ليالي عاشوراء) تطرق سماحته إلى مواضيع متنوعة شملت قراءة في أوضاع المنبر الحسيني، وشعر الطف، وبعض التحليلات التاريخية المتعلقة بالنهضة الحسينية. كما تناول في ذات الجزء الرد على إشكالية مصادر أخبار النهضة الحسينية من حيث تحديد شهود العيان والمؤرخين الذين نقلوا عنهم تلك الأخبار وتفاصيلها.

أما في الجزء الثاني فتطرق سماحة الشيخ إلى سؤال محوري ورئيسي ألا وهو (هل خرج الإمام الحسين عليه السلام وهو يعلم أنه سيستشهد في كربلاء؟)، وعلى الرغم من علم سماحته بحساسية الموضوع، إلا أنه أثر أن يتعامل مع هكذا موضوع من واقع البحث العلمي وأمانة العالم في البحث عن الحقيقة. وهذا العام يضع سماحته بين يديك - عزيزي القارئ - الجزء الثالث من (ليالي عاشوراء) والذي اختار له شعار (إن أريد إلا الإصلاح.. قراءة في دوافع النهضة الحسينية لمواجهة الفساد). ولقد أبدع في تبيان أوجه الفساد التي دفعت الإمام الحسين عليه السلام للقيام بثورته، وأبدع مرة أخرى حين ربط - وبكل ذكاء - ذلك الفساد بكل أنواعه المنتشرة في عالمنا المعاصر.

ففي الليلة الأولى وقبل الولوج إلى مفهوم الفساد، تطرق سماحة الشيخ إلى بحث توثيقي حول الكلمة الحسينية (وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي محمد ﷺ أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي محمد ﷺ وأبي علي بن أبي طالب عليه السلام)، حيث اتخذ سماحته هذه الكلمة منطلقاً لدراسة أوجه الفساد متسائلاً: متى قاله الحسين عليه السلام؟ أين قاله؟ ما المناسبة؟ وما مصادر النص؟ وما هو اللفظ الأدق للعبارة؟.. ثم انتقل سماحته إلى عرض شرح تفصيلي لمفهوم الفساد من منطلق قرآني، وقام بقراءة تطبيقات عملية لمفهوم الفساد في آفاق التاريخ وفي الواقع المعاصر. وخلال هذا العرض لمفهوم الفساد تطرق سماحته إلى مصطلح (الفساد) في اللغة ومن ثم المواجهة الدولية للفساد، حيث تساءل عما إذا كانت رؤية المجتمع الدولي المعاصر في حربه ضد الفساد تتطابق مع رؤية القرآن الكريم للفساد ومصاديقه.

وابتداءً من المحاضرة الثالثة خصص سماحته كل ليلة لعرض وجه من أوجه الفساد بإسهاب، كفساد الحاكم، والفساد

الأخلاقي، والفساد المالي، والفساد الفكري، والفساد في نقض العهود والمواثيق. وعرج في الليالي الأخيرة إلى موضوع مسؤولية الإصلاح ودور القائمين عليه. وختم سماحته ليالي عاشوراء بالخوض في كيفية القضاء على المفسدين ودور القيادة في عملية الإصلاح.

ولا يفوتني أن أذكر أن أكثر ما يميز محاور هذا الجزء الثالث هو براءة سماحة الشيخ في ربط أوجه الفساد في الماضي التي من أجل مواجهتها خرج الإمام الحسين عليه السلام بأوجه الفساد في وقتنا الحاضر.. وعرض سماحة الشيخ علي حسن غلوم ذلك بأسلوب علمي رشيق يضعنا جميعاً كقراء أمام مسؤولية قراءة كل من المشهد الحسيني وواقعنا الحالي بعقل المثقف الواعي.

عزيزي القارئ .. إن هذا الكتاب الذي بين يديك هو خير جليس وخير زاد للفكر والروح.. أتركه بين يديك والله الموفق

د. عبدالمحسن عباس دشتي



وَإِنِّي لَمْ أَخْرِجْ أَشْرًا
وَلَا بَطْرًا وَلَا مَفْسَدًا وَلَا ظَالِمًا
وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لَطَلِبِ الْإِصْلَاحِ
فِي أُمَّةِ جَدِي مُحَمَّدٍ ﷺ
أُرِيدُ أَنْ أَمُرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهِيَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُسِيرَ بِسِيرَةِ
جَدِي مُحَمَّدٍ ﷺ
وَأَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ
الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ ﷺ

مقدمة حول نص الكلمة الحسينية

(وإِنِّي لَمْ أَخْرَجْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا وَلَا مُفْسِدًا وَلَا ظَالِمًا، وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةٍ جَدِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، أُرِيدُ أَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ) ^(١).

ستكون هذه الكلمة الحسينية على صاحبها آلاف التحية والسلام هي منطلق هذه الدراسة بإذن الله ﷻ، مع الابتداء

ببحث توثيقي للنص .. متى قاله الحسين عليه السلام ؟ أين قاله ؟ ما المناسبة ؟ وما مصادر النص ؟ وما هو اللفظ الأدق للعبارة ؟
 * أقدم المصادر:

أقدم مصدر استطعت أن أجده لهذا النص هو ما جاء في كتاب (الفتوح) لأحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤هـ)، وحتى الذين ذكروا هذا النص من المؤرخين والمؤلفين أرجعوه إلى عدة مصادر، أقدمها كتاب الفتوح هذا.

وقد وجدت أن البعض أرجع النص إلى كتاب (مقتل الحسين) لأبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي (ت ١٥٧هـ)، وبالتالي سيكون أقدم زمناً من كتاب الفتوح، إلا أن الملاحظ: أولاً، أن كتاب المقتل لأبي مخنف مفقود، وأن رواياته مبثوثة في الموسوعات التاريخية كتاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، وقد قام البعض باستخراج هذه الروايات وجمعها وتقديمها في صورة كتاب مقتل أبي مخنف، وهو جهد مشكور إلا أنه لا يقدم الصورة الكاملة والحقيقية للكتاب، وبالتالي لا نعلم مدى انطباق ما تم جمعه مع الصورة الأصلية للكتاب.

ثانياً، وأن الطبري (ت ٣١٠هـ) في تاريخه لم يورد هذه العبارة في ضمن ما رواه عن أبي مخنف في أخبار وتفصيل أحداث واقعة الطف، لأنه لم يورد وصية الحسين عليه السلام لأخيه ابن الحنفية أصلاً، ولذا فإنَّ مَنْ جمع النصوص في صورة كتاب مقتل أبي مخنف وفق النسخة التي اطلعت عليها لم يورد الوصية، وبالتالي لم ترد فيه عبارة (وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً.. إلخ)، ولا أعلم كيف أرجع البعض هذا النص إلى مقتل أبي مخنف الذي تم تجميعه. ومن هنا يبقى أن المؤكد هو كون كتاب الفتوح أقدم مصدر تاريخي قد ذكر العبارة، حتى يثبت خلاف ذلك.

✽ ابن أعثم:

أما المؤلف فقد كتب عنه العلامة السيد محسن الأمين (ت ١٣٧١هـ) في (أعيان الشيعة) ما يلي: (أحمد بن أعثم الكوفي أبو محمد الإخباري المؤرخ، توفي حدود سنة ٣١٤ هـ . ذكره ياقوت في معجم الأدباء بهذا العنوان وقال: كان شيعياً، وهو عند أصحاب الحديث ضعيف، وله كتاب المألوف وكتاب الفتوح معروف.. وهكذا ذكره المجلسي

في البحار بعنوان أحمد بن أعثم وقال إن له تاريخاً ونقل عنه في البحار. ولكن في الجزء الأول من دائرة المعارف الإسلامية ما صورته: ابن أعثم الكوفي محمد بن علي مؤرخ عربي كل ما نعرفه عنه أنه توفي حدود عام ٣١٤ هـ ألف تاريخاً قصصياً عن الخلفاء الأول وغزواتهم متأثراً بمذهب الشيعة). وأضاف الأمين: (ومن الغريب قول صاحب مجالس المؤمنين إنه كان شافعي المذهب، قال ما تعريبه: في تاريخ أحمد بن أعثم الكوفي الذي كان شافعي المذهب ومن ثقات المتقدمين أرباب السير)^(١).

ويبدو أن تضعيفه من قبل ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) في كتابه معجم الأدباء مبنيٌّ - ككثير من الموارد الأخرى - على تشيع ابن أعثم، ولا سيما بلحاظ ما ذكره ياقوت لاحقاً بقوله: (وذكره لتلك الأخبار متأثراً بمذهب الشيعة).

✽ وصف الكتاب:

وكتاب الفتوح مطبوع في ثمانية أجزاء وفهرس، جاء في بدايته ما يلي: (الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلى الله على سيدنا ونبينا

محمد خاتم النبيين والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .
 إن رسول الله ﷺ لما توفي قام بالأمر بعده الإمام أبوبكر
 الصديق رضي الله عنه وكان قد بوع له بالخلافة في اليوم الذي
 مات فيه النبي ﷺ بسقيفة بني ساعدة، ولذلك قصة عجيبة
 نذكرها بتمامها، ونذكر ما فتحه المسلمون في أيامه وأيام أمير
 المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الفتوحات، وقتال أهل
 الردة...^(٣).

قد يقول قائل أن هذا بحد ذاته دليل على عدم تشيع
 الرجل، ولكن لا بد أن نعرف أن البيئة التي يؤلف فيها
 المؤرخون على وجه الخصوص كُتِبَهم تضطربهم أحياناً
 كثيرة إلى المراعاة، بل قد تدفع أحدهم إلى تصنيف
 كتاب كامل على هوى الحاكم مثلاً، فنجد أن أبا الفرج
 الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ) الذي لم يكن شيعياً بل هو أموي
 الأصل يكتب كتاب (مقاتل الطالبين) وذلك حين ارتحل
 إلى حلب على عهد حكم الحمدانيين الشيعة، وفي هذا
 الكتاب ما لا يخفى من سرد لجرائم الأمويين والعباسيين
 ضد آل بيت النبي ﷺ، ويعدّ من أهم المصادر في البين .

وكذلك الأمر بالنسبة إلى كتاب (الفصول المهمة لمعرفة الأئمة) لابن الصبّاغ المالكي الصفاقسي التونسي الأصل (ت ٨٥٥هـ) وهو من سكان مكة المكرمة، مالكي المذهب، ولكنه لما أَلَفَ الكتاب على عهد حكم الحسينين لمكة المكرمة نجده يقول في المقدمة: (وسميته بالفصول المهمة في معرفة الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين، أجت في ذلك سؤال الأعزة من الأصحاب والخلص من الأحاب، بعد أن جعلت ذلك لي عند الله ذخيرة ورجاء في التكفير لما أسلفته من جريرة واقترفته من صغيرة أو كبيرة، وذلك لما اشتمل عليه هذا الكتاب في ذكر مناقب أهل البيت الشهيرة ومآثرهم الأثيرة، ولرب ذي بصيرة قاصرة وعين من إدراك الحقائق حاسرة يتأمل ما أَلَفَته ويتعرض ما جمعته ولخصته، فحمله طرفه المريض وقلبه المهيبض إلى أن ينسبني في ذلك إلى الترفّض^(٤) أي إلى الشيعة الإمامية.. ثم يخصص كتابه لاستعراض سيرة سيدتنا الزهراء البتول عليها السلام والأئمة الإثني عشر عليهم السلام ابتداء من الإمام علي و انتهاء بالإمام المهدي محمد ابن الحسن العسكري.

وهكذا بالنسبة إلى المؤرخين الشيعة الذي تواجدوا في بيئات غير شيعية، أو ألفوا بطلب من الخلافة نفسها، كعلي ابن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) صاحب مروج الذهب، وأحمد بن إسحاق اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) الذي عُرِفَ هكذا (الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي) وغيرهم، مما جعلهم يصنّفون مؤلفاتهم بما يتوافق مع معتقد الخلافة أو الجو المذهبي العام في البيئة الحاضنة لهم.

✽ نص الوصية كما في الفتوح :

قال ابن أعثم: (وتهيأ الحسين بن علي وعزم على الخروج من المدينة ومضى في جوف الليل إلى قبر أمه فصلّى عند قبرها وودعها، ثم قام عن قبرها وصار إلى قبر أخيه الحسن ففعل مثل ذلك ثم رجع إلى منزله. وفي وقت الصبح أقبل إليه أخوه محمد ابن الحنفية. «ذكر وصية الحسين بن علي إلى أخيه محمد ابن الحنفية» قال : فلما جاء إليه محمد ابن الحنفية رضي الله عنه : يا أخي فدتك نفسي ! أنت أحب الناس إلي وأعزهم علي ولست والله أدخر النصيحة لأحد من الخلق، وليس أحد أحق لها منك، فإنك كنفي وروحي وكبير أهل

بيتي ومن عليه اعتمادي، وطاعته في عنقي، لأن الله تبارك وتعالى قد شرّفك وجعلك من سادات أهل الجنة. وإني أريد أن أشير عليك برأيي فاقبله مني. فقال له الحسين: قل ما بدا لك! فقال: أشير عليك أن تنجو نفسك عن يزيد بن معاوية وعن الأمصار ما استطعت، وأن تبعث رسلك إلى الناس وتدعوهم إلى بيعتك، فإني إن بايعك الناس وتابعوك حمدت الله على ذلك، وقمت فيهم بما يقوم فيهم النبي ﷺ والخلفاء الراشدون المهديون من بعده حتى يتوفاك الله وهو عنك راض والمؤمنون كذلك كما رضوا عن أبيك وأخيك، وإن أجمع الناس على غيرك حمدت الله على ذلك، وإني خائف عليك أن تدخل مصرًا من الأمصار أو تأتي جماعة من الناس فيقتتلون فتكون طائفة منهم معك وطائفة عليك فتقتل منهم. فقال له الحسين: يا أخي! إلى أين أذهب؟ قال: اخرج إلى مكة فإن اطمأنت بك الدار فذاك الذي تحب وأحب، وإن تكن الأخرى خرجت إلى بلاد اليمن فإنهم أنصار جدك وأخيك وأبيك، وهم أرأف الناس وأرقهم قلوباً وأوسع الناس بلاداً وأرجحهم عقولاً، فإن اطمأنت بك

أرض اليمن وإلا لحقت بالرمال وشعوب الجبال وصرت
 من بلد إلى بلد لتنظر ما يؤول إليه أمر الناس ويحكم بينك
 وبين القوم الفاسقين. فقال له الحسين: يا أخي! والله لو
 لم يكن في الدنيا ملجأ ولا مأوى لما بايعت والله يزيد بن
 معاوية أبداً، وقد قال ﷺ: اللهم لا تبارك في يزيد. قال: فقطع
 عليه محمد ابن الحنفية الكلام وبكى وبكى معه الحسين
 ساعة ثم قال: جزاك الله يا أخي عني خيراً! ولقد نصحت
 وأشرت بالصواب وأنا أرجو أن يكون إن شاء الله رأيك موفّقاً
 مسدداً، وإني قد عزمْتُ على الخروج إلى مكة وقد تهيأت
 لذلك أنا وإخوتي وبنو إخوتي وشيعتي وأمرهم أمري ورأيهم
 رأيي. وأما أنت يا أخي فلا عليك أن تقيم بالمدينة فتكون
 لي عيناً عليهم، ولا تخفِ عليّ شيئاً من أمورهم. قال: ثم
 دعا الحسين بداوة وبياض وكتب فيه: «وصية الحسين ﷺ
 لأخيه محمد ﷺ» فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا
 ما أوصى به الحسين بن علي ابن أبي طالب لأخيه محمد
 ابن الحنفية المعروف ولد علي ابن أبي طالب ﷺ: إن
 الحسين بن علي يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

وأن محمداً عبده ورسوله، جاء بالحق من عنده، وأن الجنة حق والنار حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب النجاح والصلاح في أمة جدي محمد ﷺ أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي محمد ﷺ وسيرة أبي علي بن أبي طالب...^(٥).

✽ ملاحظتان في البين:

١- الطبري صاحب تاريخ الأمم والملوك وهو معاصر لابن أعثم وأقدم منه، ذكر الحوار روايةً عن أبي مخنف، ولكنه لم يذكر الوصية. وهكذا فعل مؤرخون آخرون، ولذا فيبدو أنه لا يوجد مصدر أقدم من (الفتوح) قد ذكر النص كما أسلفنا، وللأسف فإن ابن أعثم لم يأتِ بسند محدد أو مصدر للخبر، وهكذا هو الحال في سائر نصوص كتابه.

وقد ذكر السيد محمد الترحيني في بحث له بعنوان (النهضة الحسينية): (كتاب الفتوح مطبوع بحيدر آباد، وفي الجزء الخامس ص ١٠-٢٥٣ أخبار عن النهضة الحسينية، وقد انفرد بأشياء، وذكر أول الفصل جميع الأسانيد، وتجميع

الأسانيد في مكان ثم ذكر أخبارها يُفقد الأخبار مزية، وهي إرجاع كل خبر إلى راويه^(٦). أما النسخة المتوفرة لدي فلا تحتوي حتى على هذه الأسانيد.

٢- العبارة المشهورة: (وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ الْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي مُحَمَّدٍ ﷺ) أما الموجودة في نص الفتوح: (وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِطَلَبِ النَّجَاحِ وَالْإِصْلَاحِ فِي أُمَّةِ جَدِّي مُحَمَّدٍ ﷺ)، والأولى هي الأشهر على الألسن، ومصدرها بحسب التتبع ما نقله المجلسي في بحاره عن كتاب (تسليّة المُجالس وزينة المجالس) للسيد محمد بن أبي طالب الموسوي من أعيان القرن العاشر الهجري، وهو متأخر زمنًا بقرون عن صاحب الفتوح، كما أنه لم يزودنا - للأسف - بمصدر الخبر. والخلاصة أن نص الكلمة الحسينية الواردة في وصيته لأخيه ابن الحنفية موثق في كتاب الفتوح لابن أعثم، أي في القرن الثالث أو بدايات الرابع الهجري وليس من مختلقات القرون المتأخرة والعصور التي شهدت زيادات وإضافات وتحريفات كثيرة على أحداث واقعة الطف.

المصادر والتعليقات الختامية:

- (١) محمد بن أبي طالب: تسليية المجالس وزينة المجالس - ج ٢ - ص ١٦٠.
- (٢) محسن الأمين: أعيان الشيعة - ج ٢ - ص ٤٨١.
- (٣) أحمد بن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح - ج ١ - ص ٥.
- (٤) علي بن محمد المالكي: الفصول المهمة في معرفة الأئمة - ج ١ - ص ٨٤.
- (٥) أحمد بن أعثم الكوفي: كتاب الفتوح - ج ٥ - ص ١٩-٢٢.
- (٦) عاشوراء النص والوظيفة وإمكانية التعبير: مؤسسة الفكر الإسلامي المعاصر - مجموعة مقالات - ص ٥٥-٥٦.



مفهوم الفساد

سنتناول مفهوم الفساد من منطلق قرآني، ومن ثم نقرأ في آفاق التاريخ وفي الواقع المعاصر تطبيقات عملية للمفاهيم المنتزعة من ذلك البحث.

❁ «الفساد» في اللغة:

ولكن بدايةً ماذا قال علماء اللغة في شأن هذا المصطلح؟ قال الراغب الأصفهاني: (الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال،

قليلاً كان الخروج أو كثيراً، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة^(١).

أي أن للأشياء وظائف تؤديها، وأدوار متوقعة منها، وهذا هو صلاحها، فعندما تكون الثمرة ناضجة نقول أنها ثمرة صالحة للأكل، وعندما تكون الأرض محروثة ومدعمة بالأسمدة والأتربة المناسبة نقول أنها صالحة للزراعة، وعندما يكون الحاكم مؤدياً لمهامه كما ينبغي فنقول أنه حاكم صالح.. وهكذا.

وفي المقابل فإن الفساد سيعني وجود خلل أو نقص في أداء الشئ لهذه الوظيفة أو المهمة.. وكل شئ بحسبه. ففساد الآلة بخرابها، وفساد الجسم بمرضه وضعفه، وفساد الثمرة بفقدان قوامها أو طعمها أو لونها، وفساد الحكم بنكوصه عن أداء مهماته، أو بانعدام العدالة، أو بتجاوز القوانين، أو غير ذلك.

ويجدر أن ننتبه إلى أن الصلاح شئ نسبي، وكذلك الفساد، فالإنسان قد يكون صالحاً وفساداً في آن واحد.. فبلحاظ المواطنة قد يكون صالحاً، لأنه يلتزم بالقوانين العامة ويساهم في بناء الوطن.. إلخ، ونفس هذا الإنسان قد لا يكون صالحاً بالمقياس الديني لأنه تارك للواجبات كالصلاة مثلاً. وقد يكون

بالنسبة إلى مجتمع كافر إنساناً صالحاً، وبالنسبة إلى مجتمع مؤمن إنساناً فاسداً.

✽ المواجهة الدولية للفساد:

وهناك نقطة أخرى، فمن الواضح لكل متتبع أن المجتمع الدولي المعاصر رفع شعار محاربة الفساد، وأسس في هذا الطريق عدة مؤسسات سنستعرض بعضاً منها لاحقاً، فهل تتطابق رؤية المجتمع الدولي المعاصر في حربه ضد الفساد مع رؤية القرآن للفساد ومصاديقه؟ وبعبارة أخرى، هل أن تعريف الفساد في المفهوم الدولي المعاصر وتطبيقاته الخارجية متطابقة مع تعريف الفساد وتطبيقاته في القرآن الكريم؟

تتضح الإجابة على ذلك من خلال استعراض المؤسسات التي أقيمت من قبل الأمم المتحدة وجهات أخرى لمواجهة الفساد، وتعريفها له، والدوائر والمجالات التي تسعى للعمل فيها:

١- تأسيس (منظمة الشفافية الدولية) عام ١٩٩٣ بألمانيا، وهي الآن منظمة عالمية غير حكومية، تتشكل من ١٠٠ فرع، مع سكراتارية دولية في برلين. تعرّف نفسها على أنها: (منظمة مجتمع مدني عالمية تقود الحرب ضد الفساد. تجمع الناس

معاً في تجمع عالمي قوي للعمل على إنهاء الأثر المدمر للفساد على الرجال والنساء والأطفال حول العالم. مهمة الشفافية الدولية هي خلق تغيير نحو عالم من دون فساد).

والمنظمة لا تتولى التحقيق في قضايا فساد معينة، بل تطور وسائل مكافحة الفساد وتعمل مع منظمات المجتمع المدني والشركات والحكومات لتنفيذها.

كما قد تقوم بعمل ائتلافات لمحاربة الفساد. منذ العام ١٩٩٥ بدأت المنظمة بإصدار مؤشر فساد سنوي ويُعرف بـ (CPI) ، كما تنشر تقريراً عن الفساد العالمي. وهي تعرف الفساد بأنه إساءة استغلال السلطة المؤتمنة من أجل المصلحة الشخصية، وتقسم مؤشرها إلى ١٠ درجات، فما جاء في المرتبة الأولى فهو يعني أنه الأكثر فساداً، والعكس صحيح.

٢- في عام ٢٠٠٣، أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة (ميثاق الأمم المتحدة لمكافحة الفساد)، وهو أول اتفاقية دولية ملزمة لمحاربة الفساد، تحدد إجراءات الحماية منه وتحسين المجتمعات ضده، وكشفه وتجريمه، وتسهيل التعاون الدولي لاسترداد الثروات المسلوقة. انضمت إليه حتى الآن (١٦٤)

- دولة أي ٨٥ ٪ من إجمالي الأعضاء، وتم تحديد التاسع من ديسمبر من كل عام على أنه (اليوم العالمي لمكافحة الفساد).
- ٣- إنشاء منظمة (برلمانيون عرب ضد الفساد) في نوفمبر ٢٠٠٤ والمنبثقة عن مؤتمر برلماني إقليمي عقد في بيروت، وتعرّف نفسها كالتالي: (منظمة عربية غير حكومية، لا تبغي الربح. وتهدف بشكل أساسي إلى جمع البرلمانيين والناشطين بالشأن العام، وتقوية قدراتهم في مكافحة الفساد وتعزيز المساءلة والشفافية وحكم القانون). تتخذ المنظمة من بيروت مقراً لها، وقد تم إنشاء عدة فروع وطنية لها من بينها الكويت تحت عنوان: (برلمانيون كويتيون ضد الفساد) وذلك في عام ٢٠٠٥.
- ٤- صدور اتفاقيات إقليمية وقارية لمحاربة الفساد، من بينها وثيقة الاتفاقية العربية لمكافحة الفساد في ديسمبر ٢٠١٠، الصادرة عن جامعة الدول العربية.
- ٥- في مارس ٢٠١١ تم تأسيس (الأكاديمية الدولية لمكافحة الفساد) في فيينا، بمبادرة من الحكومة النمساوية والأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي، وتهدف إلى مساعدة الدول الموقعة على ميثاق مكافحة الفساد على تطبيق أحكامه.

ومما سبق سيتضح أن التعريف الذي قدّمته منظمة الشفافية الدولية للفساد، وهو: (إساءة استغلال السلطة المؤتمنة من أجل المصلحة الشخصية) إنما يمثل مفردة من مفردات الفساد في المصطلح القرآني وفق ما سنتوصل إليه من خلال البحث القرآني، فقد طرح القرآن عنوان الفساد بصورة واسعة شملت نواح عديد من حياة الناس، ولم تقتصر على المفردة السابقة، كما أنه أيضاً لم يقتصر على السلوك الفردي السلبي من قبيل شرب الخمر والزنى وترك الصلاة وسوء الخلق، كما يقتصر عليه كثير من المتدينين في حديثهم حول الفساد.

❁ موارد «الفساد» في القرآن:

ارتبط ذكر هذا المصطلح في القرآن الكريم بعناوين متعددة في السلوك البشري المنحرف، ومن أمثلة ذلك الشرور والمعاصي التي تمثل اعتداءً على حقوق العباد من خلال:

- القتل: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢).
- التخريب: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(٣).
- السرقة: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ

وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٤﴾ .

• أكل حقوق اليتامى وأموالهم ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ (٥) .

• تطفيف الكيل والميزان: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٦) .

ولربما من هذا الباب ارتبط مصطلح الفساد في القرآن بكلمة (الأرض) في أكثر موارد استعماله، حتى يكاد يكون مصطلح (الفساد في الأرض) مصطلحا قرآنياً له دلالاته وأبعاده وإيحاءاته كما أشار إلى ذلك بعض الباحثين. فقد استعمل الكتاب الحكيم كلمة الفساد وتصريفاتها ٥٠ مرة، منها ٣٩ مرة ورد فيها اسم الأرض أو إشارة إليها، كما في الآيات التالية:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (٧) .
 ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٨) .
 ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٩) .

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١٠).

ولربما كان ذلك من جهة أن الآيات تريد أن تؤكد على عموم و سعة ما يشملها موضوع الفساد.. فظاهرة الفساد التي يشير إليها القرآن الكريم ليست ظاهرة فردية أو شخصية، أو محدودة بمجتمع ضيق أو حالة معينة خاصة، بل هي ظاهرة تعم المجتمع الإنساني بغالبيته، فالممارسات التي يُطلق عليها القرآن الكريم عنوان الفساد، تشمل الظواهر الإنسانية العامة والواسعة التي يصح إطلاق (الفساد في الأرض) عليها.

✽ الفساد في الأرض:

ومصطلح (الفساد في الأرض) له دلالات قوية، من ذلك أن الأرض وُضعت للناس جميعاً، فإذا كان سلوك فرد أو جماعة يسئ إلى هذا المأوى أو يؤدي إلى خرابه، فإن من مسؤولية الناس أن يمنعوا ذلك ويقاوموه، دون أن تنحصر المسؤولية بشخص معين، لأن المشكلة حينذاك تخص كل البشر.

وقد نجد أن القرآن الكريم ينتقد أو يحذر من بعض التصرفات

ويطلق عليها لفظ الفساد، وهي لا تتصف بتلك السعة والشمولية، لكن عمق خطرها وأثرها السئ يؤدي إلى فساد المجتمع كله، أو الحضارة السائدة، بحيث يمكن أن تدخل تحت عنوان الفساد في الأرض.

ففي قصة النبي يوسف عليه السلام تقول الآية: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾^(١١)، فما هي طبيعة الجريمة المتصور أنهم سيرتكبونها وما هي حدودها لاسيما بلحاظ أنهم طارئون على ذلك المجتمع وعددهم محدود؟ كل المسألة كانت: ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُورَاعَ الْمَلِكِ﴾^(١٢). فالمسألة أحياناً تكمن في عمق التأثير لا في حجم الفعل ذاته.

✽ الإنسان والفساد:

ويلاحظ من تتبع الآيات القرآنية حول الفساد أن لهذا العنوان حضوراً قوياً وواضحاً في بداية الوجود البشري من خلال الحوار الذي دار بين الملائكة وبين الله، قال عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١٣).

أي أن حضوره سابق حتى على خلقه، وكأنها سمة لازمة لطبيعة خلقته من خلال ما تبادر عند الملائكة، لعلمهم بأن وجود مخلوق بالصورة التالية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(١٤) يستدعي تلقائياً أن يفسد ويسفك الدماء، لأنه سيعيش الصراع بين العقل والغريزة في شخصيته، ويختزن عناصر النزاع والخلاف، والرغبة في التدمير، والأنانية في التملك والتسلط في ذاته، ما يؤدي إلى الإفساد المادي والمعنوي، فتعيش الأرض، من خلال ذلك، في جوٍّ من الحروب المفسدة والمدمرة.. وهذا لا يتناغم مع حب الله للخير والسلام وإرادته للتقوى والعمل الصالح.

وتُكمل الملائكة ملاحظتها بأنه إذا كانت حكمتك يا إلهنا من استخلاف الإنسان في الأرض أن يسبحك ويقدّس لك ويعبدك، باعتبار أن العبادة هي غاية الخلق في من تخلقه، فإنما يترأى لنا أننا نحن الملائكة الأولى بهذا الاستخلاف لأننا ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾.

وقد صدق ظنهم، وتحقق ما تحدثوا عنه، وفي بداية الوجود البشري، في ما استعرضه القرآن من قصة ابني آدم: ﴿وَأْتَلُ

عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.. فَطَوَعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ.. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴿١٥﴾.

ولذا لم يخطئهم الله ﷻ في الانطباع الذي ارتسخ عندهم، إلا أنه أعلمهم أن هناك مصالح كامنة، وناجئة عنها، أكثر أهمية، وأقوى تأثيراً، وأفضل إنتاجاً من تلك المفساد، هذا من جهة.. ومن جهة أخرى فإن من طبيعة هذا الوجود الذي خلقه الله أن الخير والشر يمتزجان فيه، فلا تجد في مكان جانباً من الخير إلا وتجد أن للشر حضوراً أو مجالاً للحضور.. فسمُّ الأفعى خيرٌ لها وشرٌّ لأعدائها أو لفريستها.

❁ الإمام الحسين يواجه الفساد:

الإمام الحسين عليه السلام ربط جانباً من دوافع خروجه بمواجهة الفساد، وقد لاحظنا هذا في النص الذي استعرضته بدايةً ضمن كتابه لأخيه ابن الحنفية، ونجده ماثلاً أمامنا مرة أخرى في النص التالي، ففي خبر أبي مخنف كما في تاريخ الطبري:

(خطب الحسين أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إن رسول الله ﷺ قال من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحُرِّم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يُدخله مَدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفعى وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ مَنْ غَيَّرَ...) ^(١٦). وهذه العبارة الأخيرة لربما تكون بصورة أخرى أوضح دلالةً كما في النص التالي.

ففي كتاب (الفتوح) لابن أعثم أن هذا النص جاء في رسالة كتبها عليه السلام أول وصوله كربلاء وذلك ضمن الأحداث التي أعقبت تضيق الحر الرياحي على الإمام ومَنْ معه: (قال: فأقبل الحسين بن علي على رجل من أصحابه يقال له زهير ابن القين البجلي، فقال له: يا بن بنت رسول الله، ذرنا حتى نقاتل هؤلاء القوم، فإن قاتلنا الساعة نحن وإياهم أيسر علينا وأهون من قتال من يأتينا من بعدهم، فقال الحسين: صدقت يا زهير. ولكن ما كنت بالذي أنذرهم بقتال حتى يتبدروني.

فقال له زهير: فسر بنا حتى نصير بكرباء فإنها على شاطئ
الفرات فنكون هنالك، فإن قاتلونا قاتلناهم واستعنا بالله عليهم.
قال: فدمعت عينا الحسين، ثم قال: اللهم، ثم اللهم، إني أعوذ
بك من الكرب والبلاء! قال: ونزل الحسين في موضعه ذلك
ونزل الحر بن يزيد حذاء في ألف فارس، ودعا الحسين بدواة
وبياض وكتب إلى أشرف الكوفة ممن كان يظن أنه على رأيه.
«ذَكَرَ كِتَابُ الْحُسَيْنِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) إِلَى أَهْلِ الْكُوفَةِ»: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ، مِنَ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ وَالْمُسَيْبِ
مِنْ نَجْبَةِ وَرَفَاعَةَ بْنِ شَدَادٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ وَالٍ، وَجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ،
أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ قَالَ فِي حَيَاتِهِ: مَنْ
رَأَى سُلْطَانًا جَائِرًا مُسْتَحِلًّا لِحَرَامٍ أَوْ تَارِكًا لِعَهْدِ اللَّهِ وَمُخَالَفًا لِسُنَّةِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَعَمِلَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ثُمَّ لَمْ يَغْيِرْ
عَلَيْهِ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَهُ مَدْخَلُهُ، وَقَدْ
عَلِمْتُمْ أَنَّ هَؤُلَاءَ لَزِمُوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ وَتَوَلَّوْا عَنْ طَاعَةِ الرَّحْمَنِ،
وَأَظْهَرُوا الْفُسَادَ وَعَطَلُوا الْحُدُودَ وَاسْتَأْثَرُوا بِالْفِيءِ وَأَحْلَوْا حَرَامَ
اللَّهِ وَحَرَمُوا حَلَالَهُ. وَأَنَا أَحَقُّ مِنْ غَيْرِي بِهَذَا الْأَمْرِ لِقَرَابَتِي مِنَ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (...)(١٧).

المصادر والتعليقات الختامية:

- (١) الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن ص ٣٧٩ .
- (٢) البقرة: ٣٠ .
- (٣) البقرة: ٢٠٥ .
- (٤) يوسف: ٧٣ .
- (٥) البقرة: ٢٢٠ .
- (٦) الشعراء: ١٨١-١٨٣ .
- (٧) البقرة: ١١ .
- (٨) البقرة: ٢٧ .
- (٩) البقرة: ٦٠ .
- (١٠) المائدة: ٦٤ .
- (١١) يوسف: ٧٣ .
- (١٢) يوسف: ٧٢ .
- (١٣) البقرة: ٣٠ .
- (١٤) الإنسان: ٣ .
- (١٥) المائدة: ٢٧-٣٢ .
- (١٦) الطبري: تاريخ الأمم والملوك - ج ٤ - ص ٣٠٤ .
- (١٧) أحمد بن أعثم: الفتوح - ج ٥ - ص ٨٠ .



فساد الحاكم

❁ صفات المفسدين:

يمكن استخلاص مجموعة من صفات المفسدين وفق ما جاء في الآيات التي تحدثت عنهم وعن أفعالهم وصور إفسادهم، وهذه الصفات ليس بالضرورة أن تتوفر في كل مفسد، ولا بالضرورة أن تجتمع كلها في شخص واحد، ولكنها من الصفات التي ارتبطت بهم في أثناء حديث القرآن عنهم:

١- يعجبك قول المُفسد، فهو حلو اللسان، بينما قلبه ينطوي على الحقد والغل والخصام، قال ﷺ: ﴿وَمَنْ النَّاسُ مَنْ يُعْجَبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾^(١). ويتحول ما في قلبه إلى سلوك شرير إذ يسعى ويجتهد في إفساد وإهلاك الناس والنبات والحيوان.

٢- يتصف بالكبر والكذب والتضليل، قال ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾^(٢). إنهم لا يعترفون بفسادهم وإفسادهم بل الأدهى أنهم يرون أنفسهم مصلحين، وهي درجة أعلى من الصالحين؛ لأن الصالح هو من يزكي نفسه وخلقه وعبادته لربه، بينما المصلح هو الصالح في نفسه المصلح لغيره وهي منزلة عالية.

٣- المفسد قد يوقن في قرارة نفسه بالحق الذي يجحده ويرفضه في الظاهر، أو قد يوقن بأنه على باطل، ومن هذا النموذج من ذكرهم القرآن بقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٣).

٤- بطر النعمة، ومثال ذلك هو (قارون) رمز أولئك الذين آتاهم

الله من صنوف المال والنعم فظنوا كما ظن قارون أنه إنما أوتيته على علم عنده، فلم يوظف شيئاً منه لآخرته، ولم ينفقه في خير الناس، قال ﷺ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٤).

٥- إشعال نيران الحروب والفتن واختلاق الأزمات الاقتصادية أو السياسية أو العقائدية لخدمة مصالحهم، سواء لإشغال الناس عن الفساد المستشري، أو للانتفاع من هذه الحروب بتحقيق مكاسب مادية كما هو ديدن شركات الأسلحة العالمية والدول العظمى، أو لتمرير سياساتهم الفاسدة في محيط نشاطهم. قال ﷺ: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٥). يقول أحد الباحثين في الشأن الاجتماعي العراقي أنه كلما أراد الاستعمار البريطاني ومن يمثله في الحكم في العراق في النصف الأول من القرن العشرين، تمرير أمر ما، خلقوا فتنة مذهبية بين السنة والشيعة لإلهاء الناس بها والتفرغ لإنجاز مشروعهم.

٦- الصد عن سبيل الله، قال ﷺ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٦﴾ ،
 وقال على لسان النبي ﷺ : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ
 تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا
 وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
 الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٧) .

ولهذا الصد صور عديدة، فقد تحدث القرآن الكريم عن
 نموذج تعامل قريش مع النبي ﷺ والمسلمين بالتخويف
 والتعذيب والإغراء وغير ذلك من قبيل ما جاء في قوله ﷺ :
 ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
 تَعْلَمُونَ ﴾ (٨) .

كما تحدث القرآن عن نموذج المنافقين الذين كانوا يمنعون
 الآخرين من الأخذ عن رسول الله، أو الالتحاق بجيش
 المسلمين، أو التمرد عليه، أو ببناء مسجد (ضرار) ليكون مركزاً
 لمواجهة جهود النبي وهدم مشاريعه، أو غير ذلك من قبيل ما
 جاء في قوله ﷺ : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي
 الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ
 اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٩) .

✽ من الصور القرآنية للفساد في الأرض :

فساد الحاكم : فرعون نموذجاً :

قال ﷻ: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ ^(١). ويمكن الاستنتاج بحسب الآية أن

لتحقق هذا النوع من الإفساد مقومات، وهي :

١- العلو في الأرض : بدلالة قوله ﷻ: ﴿ عَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ وذلك استكباراً من خلال الامتيازات العائلية، والأموال والممتلكات التي تحت يديه، والجماعات التي كانت تحيط به وتزلف له، وتقدم له الطاعة والولاء.

٢- تفتيت وحدة المجتمع : بدلالة قوله ﷻ: ﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ بافتعال أو ترسيخ التقسيم الطبقي والعرقي، ومن خلال إثارة الصراعات لشغلهم عن قضايا العدالة الاجتماعية والحريات وحقوقهم الإنسانية، ولضمان بقائهم تحت سلطانه.

٣- استضعاف شريحة من المجتمع : بدلالة قوله ﷻ: ﴿ يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ ﴾ وذلك بتسخير بني إسرائيل الذين كانوا في عداد الأسرى الأرقاء فيستخدمهم في جميع حاجاته، ليكونوا اليد

العاملة المجانية التي توفر له كل ما يريد من دون خسارة.

٤- ارتكاب الجرائم الإنسانية بحق هذه الشريحة: بدلالة قول الله ﷻ: ﴿يَذَبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾، فقتل الأبناء الذكور بعد أن تداول بنو إسرائيل أن أوان ولادة النبي المبشّر به قد اقترب، وأنه سيكون السبب في زوال ملك فرعون، الأمر الذي بثّ الرعب في قلبه، فأمر بقتل المواليد الذكور من بني إسرائيل دون استثناء.. كما كان يستحيي نساءهم ويسلبهن حريتهن بغيّة استخدامهن في شؤونه وشؤون طبقته الاجتماعية.

ما مارسه فرعون وفق الآية القرآنية مثل إخلالاً بالأمن الاجتماعي، وهذا الإخلال من الصور الخطيرة للفساد، ومن هنا اعتبر القرآن الكريم هذه الممارسة الفرعونية نوعاً من الإفساد.

ولكي يتضح عمق الخطر في هذا النوع من الإفساد، لا بد أن نعود لاستيضاح أهمية توفير الأمن الاجتماعي، فعبر القرون صيغت الأنظمة والقوانين والأعراف والمواثيق للحفاظ أمن المجتمع وسلامته داخلياً وخارجياً، ولتأمين وضع اقتصادي يضمن سبل المعيشة المناسبة ونموّها، ولتوفير مأوى مناسب لأفراد المجتمع، وبالتالي تحقيق حياة كريمة محترمة.

ولنلاحظ وصف الإمام علي عليه السلام لتوفر مقومات الأمن الاجتماعي حين حكم الكوفة: (إنه ما أصبح بالكوفة أحد إلا ناعماً، إن أدناهم منزلة ليأكل البر، ويجلس في الظل، ويشرب من ماء الفرات)^(١١)، فهم في نعمة وافرة (إن أدناهم منزلة ليأكل البر) فلا جائع في الكوفة، بل والطعام الأدنى هو البر، والبر أرقى من الشعير الذي اعتادوا أكله (ويجلس في الظل) أي يمتلك سكناً (ويشرب من ماء الفرات).

وأي تهديد لهذه الحاجات أو خلل في تلبيتها أو كفايتها، يعدّ تعدّياً على تلك الحقوق، ويطلق عليها القرآن عنوان (الإفساد في الأرض)، ومن أمثلة ذلك:

- إهمال البنية التحتية للبلد في المجال الصحي أو التعليمي أو المواصلاتي أو غير ذلك حتى تنهار بمرور الزمن دون اتخاذ إجراء مناسب.

- عدم معالجة موضوع الغلاء الفاحش الذي يحرم المواطن من الحصول على أبسط احتياجاته المعيشية إلا بشق الأنفس، أو بهدر الكرامة، أو بالسرقة، أو بالارتشاء، أو بتجاوز القانون، ويقف الحاكم موقف المتفرج، أو يكون مساهماً في ذلك، تلبيةً لمصالحه.

• وضع تشريعات تعمل على خلق هوة بين طبقات المجتمع أو اتساعها، فتندعم الطبقة المتوسطة كما حصل في بعض المجتمعات المعاصرة، مع الإصرار على السياسات الاقتصادية الفاشلة، أو التي تصب في مصلحة الحاكم، أو مصلحة الحاشية المتنفذة من حوله، أو طبقة معينة في المجتمع.

• السماح بنشوب الصراعات الطائفية والافتتال المذهبي والنزاعات الحزبية العنيفة، أو العمل على نشوبها، أو عدم المبادرة لغرس مفاهيم المواطنة السليمة، أو عدم توفير الأجواء المناسبة لها، أو فتح المجال لنمو القوى المتطرفة التي تعمل على تمزيق المجتمع وتفتيت لُحمته، وكل ذلك بهدف تفعيل سياسة (فرق تسد)، أو للاستقواء بطرف على حساب بقية الأطراف.

• حرمان فئات من المجتمع من حقوقها في ممارسة شعائرها الإيمانية بحرية مسؤولة، أو عدم الاعتراف أصلاً بوجودها، نتيجة التعصب الديني أو المذهبي.

ومن هنا ارتأت المجتمعات البشرية المتحضرة ضرورة وجود دستور تنتظم من خلاله العلاقات على كافة الأصعدة، ويمارس الحاكم حكمه بواسطته، ويحاسب به المسئء مهما علا شأنه،

ويُكافأ به المحسن دون تمييز.. إلخ. وقد قدّم أمير المؤمنين علي عليه السلام من خلال كتابه إلى مالك الأشتر رضي الله عنه حين بعثه إلى مصر ليحكمها، دستوراً رائعاً للحكم يشتمل على توصيات أخلاقية وإدارية وسياسية.

❁ صورة أخرى لإفساد الحاكم:

ولا يتوقف تحقق الإفساد على يد الحاكم الظالم بما يمارسه في إطار مجتمعه، بل بعدوانه على المجتمعات الأخرى المسالمة أيضاً، وقد تحدث القرآن الكريم عن مثل هذه الصورة في حديثه عن عدوان يأجوج ومأجوج ضمن أحداث رحلة ذي القرنين الإصلاحية في الأرض، حيث واجه الوضع التالي: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونَهُمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا، قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا، قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (١٢).

وتصرّح الآيات أن القوم الذين طلبوا نجده ت كانوا قوماً متخلفين بلا حضارة ولا مدنية، بل ويبدو أنهم ما كانوا يمثلون

مجتمعاً مؤمناً.. فلم يمنع ذلك ذا القرنين من أن يعينهم بجهد جهيد في رد عدوان قبائل يأجوج ومأجوج من خلال بناء ردم ضخّم بين جبلين.

ويمكن أن يستفاد من ذلك أن العدوان على المجتمعات المسالمة، وبلا وجه حق، يعد نوعاً من أنواع الإفساد في الأرض، بغض النظر عن طبيعة الانتماء الديني لذلك المجتمع، وهذا ما لم يقبل به ذو القرنين من باب الإحساس بالمسؤولية، فبادر لمساعدة المعتدى عليهم بذلك البناء.

❁ الإمام الحسين يواجه فساد السلطة:

واجه الإمام الحسين عليه السلام واقعاً مؤلماً من فساد السلطة الحاكمة، إذ عمل الأمويون لتحقيق أهدافهم السلطوية على عدة جبهات وذلك خلال عقدين من الزمن، فكان من بينها:

١- اتباع سياسة الإرهاب والقتل والتجويع بالنسبة إلى من لا يتفق معهم في الهوى السياسي، ففي كتاب (الغارات) لإبراهيم بن محمد الثقفي (ت ٨٩٦ هـ): (عن سفيان بن عوف الغامدي قال: دعاني معاوية فقال: إني باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت «بلدة

تقع على الفرات شمال الأنبار» فتقطعها، فإن وجدت بها جنداً فأغر عليهم، وإلا فامض حتى تغير على الأنبار، فإن لم تجد بها جنداً فامض حتى تغير على المدائن ثم أقبل إلي، واتق أن تقرب الكوفة، واعلم أنك إن أغرت على أهل الأنبار وأهل المدائن فكأنك أغرت على الكوفة، إن هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترهب قلوبهم وتجري كل من كان له فينا هوى منهم ويرى فراقهم، وتدعو إلينا كل من كان يخاف الدوائر، وخرّب كل ما مررت به من القرى، واقتل كل من لقيت ممن ليس هو على رأيك، وأحرب الأموال «أي خذها كاملة ولا تُبق منها شيئاً» فإنه شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلوب»^(١٣).

وقد ذكر الإمام علي عليه السلام بعض هذه الغارات التي شنها الغامدي كما جاء في نهج البلاغة حيث قال : (وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ، وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ، وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَاحِهَا، وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ، وَالْآخَرَى الْمُعَاهَدَةَ، فَيَنْتَرِعُ حِجْلَهَا وَقَلْبَهَا وَقَلَانِدَهَا وَرِعَاثَهَا «أقراطها»، مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالْأَسْتَرْجَاعِ وَالْأَسْتِرْحَامِ، ثُمَّ أَنْصَرَفُوا وَافْرَيْنَ، مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ، وَلَا

أَرِيقَ لَهُمْ دَمٌ، فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِمًا مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسْفًا مَا كَانَ بِهِ مَلُومًا، بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيرًا^(١٤).

وذكر الثقفى أيضاً في كتابه (الغارات): (دعا معاوية الضحاك ابن قيس الفهري وقال له سر حتى تمر بناحية الكوفة و ترتفع عنها ما استطعت فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه و إن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغر عليهما، و إذا أصبحت في بلدة فأمس في أخرى، و لا تقيمن لخيـل بلغك أنها قد سُرّحت إليك لتلقاها فتقاتلها. فسرّحه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف جريدة خيل «أي خيالة فقط من غير قوة مشاة».

قال: فأقبل الضحاك يأخذ الأموال و يقتل من لقي من الأعراب حتى مر بالثعلبية فأغار خيله على الحاج فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل مقبلاً فلقي عمرو بن عميس بن مسعود الذهلي و هو ابن أخ عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ فقتله في طريق الحاج عند القطقطانة و قتل معه ناساً من أصحابه. قال أبو روق فحدثني أبي أنه سمع علياً عليه السلام و قد خرج إلى الناس و هو يقول على المنبر: يا أهل الكوفة اخرجوا إلى العبد الصالح عمرو بن عميس و إلى جيوش لكم قد أصيب منها طرف، اخرجوا فقاتلوا

عدوكم و امنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين . قال : فردوا عليه رداً ضعيفاً ، و رأى منهم عجزاً و فشلاً فقال : و الله لوددت أن لي بكل مائة رجل منكم رجلاً منهم ! ويحكم اخرجوا معي ثم فروا عني إن بدا لكم ، فو الله ما أكره لقاء ربي على نيتي و بصيرتي و في ذلك رَوْحٌ لي عظيم و فرج من مناجاتكم و مقاساتكم و مداراتكم مثل ما تدارى البَكَارُ العَمْدَةُ «مثلما تدارى الإبل الشابة الصغيرة المكسورة السنام بسبب ثقل الحمل» و الثياب المتهرئة «المتهتكة لقدمها» كلما خيطة من جانب تهتكت على صاحبها من جانب آخر ثم نزل ، فخرج يمشي حتى بلغ الغريين ، ثم دعا حجر بن عدي الكندي من خيله فعقد له راية على أربعة آلاف ثم سرّحه^(١٥) .

وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ) : (كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب و أهل بيته ، فقامت الخطباء في كل كورة و على كل منبر يلعنون علياً و يبرأون منه و يقعون فيه و في أهل بيته ، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام فاستعمل عليهم

زياد بن سمية وضم إليه البصرة فكان يتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل، وطرفهم «أبعدهم إلى الأطراف والنواحي البعيدة» وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألا يُجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة، وكتب إليهم أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرمهم واكتبوا لي بكل ما يروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته. ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا فليس يجئ أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروى في عثمان فضيلة أو منقبة الا كتب اسمه وقربه وشفّعه، فلبثوا بذلك حيناً. ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا

فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبراً يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني وادحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرئت كتبه على الناس فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجد الناس في رواية ما يجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر وألقي إلى معلمي الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع حتى روه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم فلبثوا بذلك ما شاء الله. ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه! وشفع ذلك بنسخة أخرى: مَنْ اتهمته بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره! فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة حتى إن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقى إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة

ليكتمن عليه، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المرءون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولائهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها. فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليه السلام فازداد البلاء والفتنة فلم يبق أحد من هذا القبيل الا وهو خائف على دمه أو طريد في الأرض^(١٦).

وفي هذا الشأن أخبار كثيرة يمكن الاطلاع عليها في كتاب الغارات وفي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد وغيرهما. وقد كتب د. طه حسين (ت ١٣٩٣هـ) في كتابه (الفتنة الكبرى): (لو ردّت إلى المسلمين أمورهم، وطلب إليهم أن يختاروا إماماً لما اختاروا معاوية بحال من الأحوال؛ لأنّهم بلوا سياسته، وحبروا عمّاله، فرأوا أنّ أمورهم تصير إلى شرّ عظيم.. فهم يحكمون بالخوف لا بالرضا، ويؤسسون بالرعب والرهب لا بما ينبغي أن

يُساس به المسلمون من كتاب الله وسنة نبيه . وأموالهم العامة ليست لهم بل إلى ملكهم وولاتهم، يتصرفون فيها ما يشتهون، لا على ما يقتضيه الحق والعدل والمعروف ... ودماؤهم ليست حراماً على الملك وعماله، وإنما يستحل منها الملك والعمال ما حرم الله... لا إقامة لحدود الدين، ولكن تثبيتاً لسلطان الملك^(١٧).

٢- تمكين الحالة الطبقية والتعصبات العرقية والقبلية والحزبية واستغلالها، وعلى ذلك شواهد كثيرة لاحظها المستشرق ولهاوزن (ت ١٣٣٦هـ) فكتب في مؤلفه (الدولة العربية): (وأججّ الولاة نار هذه الخصومة «أي بين القبائل» ولم يكن تحت تصرف الولاة إلا شرطة قليلة، وفيما سوى ذلك كانت فرقتهم من مقاتلة المصّر، وهي قوّة الدفاع في القبائل ، حتّى إذا أحسنوا التصرف تهيأ لهم أن يضربوا القبائل بعضها ببعض، وأن يثبتوا مركزهم بينهم. وكثيراً ما كان يحدث أن الوالي يعتمد على إحدى القبائل ضدّ الأخرى، وبوجه عام على قبيلته التي أتى بها معه، حتّى إذا أتى وال جديد أتت قبيلة أخرى إلى الحكم، وينتج من ذلك أن القبيلة التي نُحيت عن الحكم

تُصبح عدوًّا لدوداً للقبيلة التي تحكم، وهكذا أضحت الميزات القبلية ملطخة بالسياسة والخصام على الغنائم السياسية^(١٨).

وقال الشيخ محمد مهدي شمس الدين (ت ١٤٢١هـ) في (ثورة الحسين): (وقد تقمّصت هذه العصبية القبلية شكلاً دينياً حينما أخذت القبائل تسعى إلى اختراع الأحاديث في فضلها تنسبها إلى النبي ﷺ؛ وذلك إنّ هذه القبائل لما كانت تتنازع الرياسة، والفخر، والشرف وجدت في الأحاديث باباً تدخل منه إلى المفارقة كالذي وجدته في الشعر، فكم من الأحاديث وضعت في فضل قريش، والأنصار، وأسلم، وغفار، والأشعرين، والحميرين، وجهينة، ومزينة)^(١٩).

٣- التلاعب في مفاهيم الإسلام وتشريعاته بغرض تمكين صور الفساد المختلفة وإضفاء الشرعية عليها، فحول دلالة عنوان الفساد ومصاديقه نجد الخبر التالي الذي يرويه ابن أبي الحديد: (وقد روي أن معاوية بذل لسمرة بن جندب مائة ألف درهم حتى يروي أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ

لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠﴾
 وَأَنَّ الْآيَةَ الثَّانِيَةَ نَزَلَتْ فِي ابْنِ مِلْجَمٍ، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ
 النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ ^(٢١) فَلَمْ يَقْبَلْ، فَبَذَلَ
 لَهُ مَائَتِي أَلْفِ دَرَاهِمٍ فَلَمْ يَقْبَلْ، فَبَذَلَ لَهُ ثَلَاثُمِائَةَ أَلْفٍ فَلَمْ يَقْبَلْ،
 فَبَذَلَ لَهُ أَرْبَعُمِائَةَ أَلْفٍ فَقَبِلَ، وَرَوَى ذَلِكَ ^(٢٢).

وسنتعرض لهذا الموضوع بشكل أوسع خلال فصول لاحقة
 بإذن الله ﷻ.



المصادر والتعليقات الختامية:

- (١) البقرة: ٢٠٤-٢٠٥ .
- (٢) البقرة: ١١ .
- (٣) النمل: ١٤ .
- (٤) القصص: ٧٧ .
- (٥) المائدة: ٦٤ .
- (٦) النحل: ٨٨ .
- (٧) الأعراف: ٨٦ .
- (٨) فصلت: ٢٦ .
- (٩) التوبة: ٧٩ .
- (١٠) القصص: ٤ .
- (١١) المجلسي: بحار الأنوار - ج ٤٠ - ص ٣٢٧ - ح ٩ .
- (١٢) الكهف: ٩٢-٩٥ .
- (١٣) الغارات: ج ٢ - ص ٤٦٤ .
- (١٤) نهج البلاغة - خ ٢٧ .
- (١٥) الثقفى: الغارات - ج ١ - ص ٢٩٢-٢٩٣ .
- (١٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ج ١١ - ص ٤٤-٤٦ .
- (١٧) طه حسين: الفتنة الكبرى - ج ٢ - علي وبنوه - ص ١٣١ - ١٣٢ .
- (١٨) يوليوس ولهاوزن: الدولة العربيّة - ص ٥٨ .
- (١٩) شمس الدين: ثورة الحسين - ص ١٠٥ .
- (٢٠) البقرة: ٢٠٤-٢٠٥ .
- (٢١) البقرة: ٢٠٧ .
- (٢٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة

الفساد الأخلاقي

❖ الانحراف الجنسي: قوم لوط نموذجاً:
 قال ﷺ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ
 بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ، أَنْتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ
 السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ
 قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ رَبِّ انصُرْنِي
 عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١).

الوضع الطبيعي في فطرة الإنسان في العلاقة الجنسية هو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢)، والآية الشريفة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾^(٣). وما سوى ذلك يعد خروجاً على الفطرة.

✽ التمرد على الفطرة:

وكل خروج وتمرد على الفطرة له عواقب سلبية، إما على المستوى الفردي، كاعتلال الصحة أو الموت أو انقطاع النسل، أو على المستوى الجماعي كحدوث الفتن والحروب واختلال نظم المجتمع. ولنضرب على ذلك المثال التالي حيث قال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾^(٤)، هذه هي الفطرة البشرية الاجتماعية، فإذا اختل نظام التعارف الفطري هذا، بدأ الصراع والاقتتال ونشبت الفتن بين الناس.

وهكذا فإن الإخلال بالوضع الفطري الطبيعي في لزوم كون العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة، لا بين الرجل والرجل، ولا بين المرأة والمرأة له عواقبه الوخيمة جداً.. وقد روي عن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أنه كتب جواباً على بعض المسائل، ومما كتبه: (وَعَلَّةُ تَحْرِيمِ الذُّكْرَانِ لِلذُّكْرَانِ وَالْإِنَاثِ لِلْإِنَاثِ لِمَا رُكِّبَ فِي الْإِنَاثِ وَمَا طُبِعَ عَلَيْهِ الذُّكْرَانُ، وَلِمَا فِي إِيَّانِ الذُّكْرَانِ لِلذُّكْرَانِ وَالْإِنَاثِ لِلْإِنَاثِ مِنْ انْقِطَاعِ النَّسْلِ، وَفَسَادِ التَّدْبِيرِ، وَخَرَابِ الدُّنْيَا) ^(٥)، والمراد بقوله عليه السلام: (لِمَا رُكِّبَ فِي الْإِنَاثِ وَمَا طُبِعَ عَلَيْهِ الذُّكْرَانُ) هو ما تقتضيه الفطرة الإنسانية، والقاعدة هي ما في قوله عليه السلام: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ^(٦).

بل حتى العلاقة ضمن الوضع الفطري لا بد من تقنينها، ولذا نظمها الخالق عليه السلام لتكون في إطار معين، وهو الزواج ومُلك

اليمين فقط: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ، إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ
أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾^(٧)، ومخالفة ذلك تعني معارضة الفطرة
أيضاً، وترتب الآثار الصحية والاجتماعية المدمرة على تفشي
الزنا أمرٌ بين.

✽ تمرّد قوم لوط:

ولما تمرّدت بعض المجتمعات على هذه الفطرة، وأولها
قوم النبي لوط عليه السلام، ومساكنهم كما ورد في «العهد القديم»
عبارة عن قرى «سدوم، عمورة، أدومة، صبييم» في منطقة البحر
الميت، اعتبر الله أنهم أفسدوا بذلك، أي مارسوا في الجانب
الجنسي ما يخل ويخالف الغرض الذي من أجله خلقت هذه
الغريزة، وما يخالف التشريع الذي وُضع بما فيه صلاحهم، بل
اعتبرها الله ﷻ (فاحشة) أي فعلاً قد عظم قبحه.

وإذا كان المراد من قوله ﷻ: ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ
الْعَالَمِينَ﴾ هو ابتداعهم لهذا الفعل الشاذ، فسيعود تاريخه إلى
أكثر من ٤٠٠٠ سنة، لأن لوطاً عليه السلام معاصر للخليل إبراهيم عليه السلام
وإذا كان المراد أنهم أول من جاهر وأشاع هذه الرذيلة ومارسها

علناً بلحاظ قوله ﷺ: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾، فسيكون تاريخها أقدم من ذلك كما رجّح ذلك بعض علماء التاريخ، إذ قالوا أن الآشوريين، والبابليين والمصريين، والهنود، واليونانيين، والفرس مارسوا ذلك.

ولكن يبدو أن الآية القرآنية تبين أنهم مبتدعو هذه الفاحشة حيث أن ﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا﴾ تخص أصل الفعل لا الممارسة العلنية، والأقوام المذكورة هنا تأتي في موازاة عهد النبي لوط عليه السلام وبعده.

✽ التلاعب في المفاهيم:

ومن الخزي بالنسبة إلى بعض الأمم أن اعتبرت ممارسة هذه الفاحشة من علامات التحضر والرفي والمكانة المرموقة في المجتمع، فقد نص المؤرخون على أن الإغريق مارسوا هذه الرذيلة في خصوص الأوساط العلمية والفكرية! وهكذا تعود اليوم بعض المجتمعات لذات النعمة، معتبرة أن المجتمع المتقدم والمتحضر هو الذي يكفل لهم الحق بالزواج الرسمي، ويقر تكوين الأسر المتشكلة منهم، ويقنّن تبنيهم للأطفال تعويضاً عن عدم الإنجاب!

وقد قرأت أن الرئيس الأميركي الأسبق (نيكسون) اعتبر أن: (هؤلاء الشاذين يقوّضون أركان المجتمع، وأن الذي أضاع الإمبراطورية الاغريقية هو الشذوذ الجنسي، فأرسطو كان شاذاً وكذلك سقراط! وأن الذي هدم الامبراطورية الرومانية هو انحلال الأباطرة، ومضاجعة البابوات للراهبات. ويخلص نيكسون في النهاية إلى أن أميركا تتجه الى المصير ذاته!)^(٨).

✽ موقف الديانات السماوية:

الديانات السماوية حاربت هذه الفاحشة، ففي العهد القديم: (إذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعل كلاهما رجساً. إنهما يُقتَلان. دمهما عليهما)^(٩).

وفي العهد الجديد: (لا تضلوا، لا زناة، ولا عبدة أوثان، ولا فاسقون، ولا مأبونون، ولا مضاجعو ذكور)^(١٠). ولكن مع هذا صدر عن بعض الكنائس القول بالتفريق بين من له مجرد ميل تجاه الجنسية المثلية دون ممارستها، وبين من يمارس الجنسية المثلية فعلياً، فحرمت هذا الفعل على الأخير، وأظهرت التسامح على الأول!

ويبدو أن مما ساهم في تغيير الكنيسة لموقفها هو ممارسة

بعض الكهنة لها، والفضائح المترتبة على ذلك كما انعكس إعلامياً مؤخراً أيضاً، واستدعى تقديم استقالات بعضهم، ولذا قدّم أحد هؤلاء ما يبرر ميله الجنسي بقوله: (إن البتولية موجهة بالذات إلى الكهنة المغايرين للجنس، وهي مطلوبة منهم فقط، وعليهم الحفاظ عليها حسب ما تسمح لهم قدرتهم على تحملها. أما الكهنة المماثلين للجنس فهم يفتخرون بهذا التوجه الجنسي!)^(١١) وهذا فساد لتبرير الفساد.

✽ الموقف في الإسلام:

نفس هذا المسار الكنسي للتعامل مع هذه الفاحشة، هناك مسار مشابه في العالم الإسلامي والعربي. فالموقف الديني الإسلامي استمر واضحاً وحاداً تجاه هذه الفاحشة إلى أن دخلت بعض الطرق الصوفية على الخط، وعلى أثر الدعوة للزهد بالدنيا وملذاتها وفق النظرة الصوفية الخاصة، امتنع بعض رجالاتهم عن الزواج، لاسيما مع انقطاعهم عن المجتمعات وتفضيلهم العزلة مع بعض مريديهم. وهذه المخالفة للفترة الإلهية جرّت بعضهم للوقوع في محظور شنيع.

ولنقرأ هذا النص الصادر عن أحد شيوخ الصوفية توضيحاً

للفكرة مع شيء من الاختصار تجنباً للإطالة، فبعد أن يوبّ الموضوع تحت عنوان: (في ذكر عشق الظرفاء والفتيان للأوجه الحسان) ويذكر انقسام الآراء حوله يبدأ بسرد المبررات التي - بحسبه - تجعل الأمر فطرياً طبيعياً بل ومن دلالات التحضر والسمو الروحي، قال: (هذا العشق - أعني الالتذاذ الشديد بحسن الصورة الجميلة والمحبة المفرطة لمن وجد فيه الشمائل اللطيفة وتناسب الأعضاء وجودة التركيب - لما كان موجوداً على نحو وجود الأمور الطبيعية في نفوس أكثر الأمم من غير تكلف وتصنع، فهو لا محاله من جملة الأوضاع الإلهية التي يترتب عليها المصالح والحكم، فلا بد أن يكون مستحسنًا محموداً، سيما وقد وقع من مباد فاضلة لأجل غايات شريفة. أما المبادي فلأننا نجد أكثر نفوس الأمم التي لها تعليم العلوم والصنائع اللطيفة والآداب والرياضيات مثل أهل الفارس وأهل العراق وأهل الشام والروم وكل قوم فيهم العلوم الدقيقة والصنائع اللطيفة والآداب الحسنة غير خالية عن هذا العشق اللطيف... ولكن وجدنا سائر النفوس الغليظة والقلوب القاسية والطبائع الجافية من الأكراد والأعراب والترك والزنج خالية عن

هذا النوع من المحبة، وإنما اقتصر أكثرهم على محبة الرجال للنساء ومحبة النساء للرجال طلباً للنكاح والسفاد كما في طباع سائر الحيوانات المرتكزة فيها حب الازدواج والسفاد).

ثم يقدم تبريراً آخر يتعلق بالغاية منه قائلاً: (وأما الغاية في هذا العشق الموجود في الظرفاء وذوي لطافة الطبع فلما ترتب عليه من تأديب الغلمان وتربية الصبيان وتهذيبهم وتعليمهم العلوم الجزئية كالنحو واللغة والبيان والهندسة وغيرها والصنائع الدقيقة والآداب الحميدة والأشعار اللطيفة الموزونة والنغمات الطيبة وتعليمهم القصص والأخبار والحكايات الغريبة والأحاديث المروية إلى غير ذلك من الكمالات النفسانية... فمن أجل ذلك أوجدت العناية الربانية في نفوس الرجال البالغين رغبة في الصبيان وتعشّقاً ومحبة للغلمان الحسان الوجوه).

ثم يحاول تأكيد ما سبق من خلال النظر في الآثار الناتجة عنه: (و لعمري إن هذا العشق يترك النفس فارغة عن جميع الهموم الدنياوية إلا همّ واحد... و هو يرقق القلب ويذكي الذهن وينبه النفس على إدراك الأمور الشريفة).

ثم يستشهد بسلوك شيوخ الطريقة وتوصياتهم: (ولأجل

ذلك أمر المشائخ مريدتهم في الابتداء بالعشق، وقيل العشق العفيف أو في سبب في تلطيف النفس وتنوير القلب. وفي الأخبار أن الله جميل يحب الجمال، وقيل: مَنْ عَشَق وَعَفَ وَكَتَمَ وَمَاتَ، مَاتَ شَهِيداً).

نعم يستدرك لاحقاً لبيان أن مثل هذا العشق يخص مرحلة فقط من مراحل السلوك، فمتى ما ارتقى السالك إلى مراتب أعلى فلا ينبغي حينئذ الاستمرار في مثل هذا العشق: (ينبغي استعمال هذه المحبة في أواسط السلوك العرفاني، وفي حال ترقيق النفس وتنبهها عن نوم الغفلة ورقدة الطبيعة وإخراجها عن بحر الشهوات الحيوانية، وأما عند استكمال النفس بالعلوم الإلهية وصيرورتها عقلاً بالفعل محيطاً بالعلوم الكلية ذا ملكة الاتصال بعالم القدس، فلا ينبغي لها عند ذلك الاشتغال بعشق هذه الصور المحسنة اللخمية والشمائل اللطيفة البشرية لأن مقامها صار أرفع من هذا المقام... ولا يبعد أن يكون اختلاف الأوائل في مدح العشق وذمه من هذا السبب الذي ذكرناه، أو من جهة أنه يشته العشق العفيف النفساني الذي منشؤه لطافة النفس واستحسانها لتناسب الأعضاء واعتدال المزاج وحسن

الأشكال وجودة التركيب بالشهوة البهيمية).

وأخيراً فإنه يخطئ رأي الرافضين لهذا النوع من العشق وحججهم: (وأما الذين ذهبوا إلى أن هذا العشق من فعل البطالين الفارغي الهمم فلأنهم لا خبرة لهم بالأمور الخفية والأسرار اللطيفة ولا يعرفون من الأمور إلا ما تجلى للحواس وظهر للمشاعر الظاهرة، ولم يعلموا أن الله تعالى لا يخلق شيئاً في جبلة النفوس إلا لحكمة جليلة وغاية عظيمه. وأما الذين قالوا إنه مرض نفساني أو قالوا إنه جنون الهي فإنما قالوا ذلك من أجل أنهم رأوا ما يعرض للعشاق من سهر الليل ونحول البدن وذبول الجسد وتواتر النبض وغور العيون والأنفاس الصعداء مثل ما يعرض للمرضى، فظنوا أن مبدأه فساد المزاج واستيلاء المرأة السوداء، وليس كذلك بل الامر بالعكس...) ^(١٢). فأى فرق بين هذا الكلام وبين ما جاء على لسان بعض كهنة الكنيسة؟

❁ فلاسفة وفساد:

وإذا عدنا إلى المجتمعات الغربية وجدنا أنه بموازاة السعي الكنسي لتبرير هذه الفاحشة، عمل بعض الفلاسفة الغربيين العلمانيين - مع ابتعاد الغرب عن الحكم الديني - وكذلك

بعض المحللين النفسيين على تجميل الصورة القبيحة لهذه الفاحشة في المنظور العام، بل وتقديم المبررات (النفسية) و (الوراثية) و(البيئية) التي فتحت المجال لشرعنتها ووضع القوانين الخاصة بها.

وأخيراً تم الاعتراف بالزيجات الحاصلة بين الشاذين رسمياً، بما في ذلك إعطاؤهم حق التبنى!
 * فاحشة قديمة وثوب جديد:

وتعود هذه الفاحشة إلى مجتمعاتنا العربية والإسلامية بثوب جديد، فبعد أن كانت تُقْبَحُ في مجتمعاتنا صارت من عناوين (الحرية الشخصية) تماشياً مع التقليعة الغربية، وأمسى المتشبهون بالنساء يظهرون علناً، وتجدهم يعملون في الإدارات الحكومية والأسواق وحتى المدارس والمستشفيات بظاهر المتحول! كما يقومون بنشر مقاطع الفيديو والصور الخاصة بحفلاتهم وما إلى ذلك على الإنترنت دون حياء!

ويأتي هذا كله مصحوباً بدعم من بعض المؤسسات الدولية، وجمعيات الدفاع عن حقوق الشاذين في العالم. وقد تجلّى هذا الدعم في مواقف عدة، من بينها الموقف الذي حدث في

العام ٢٠٠٨، عندما قامت ١١٧ منظمة تعمل في مجال الصحة وحقوق الإنسان بالاعتراض على حكم محكمة جناح قصر النيل التي قضت بالحكم ٥ سنوات على خمسة مصريين، بتهمة الشذوذ.

ومنها أيضاً اعتراض منظمة (هيومان رايتس ووتش) على قيام السلطات السعودية في عام ٢٠٠٩ باعتقال ٦٧ رجلاً في العاصمة الرياض بسبب ارتدائهم ملابس نسائية في إحدى الحفلات!

هذا الدعم الذي يناله هؤلاء الشاذون يساهم في تزايد عددهم في العالم العربي، وقد قدر الكاتب (نبيل فياض) وهو يعرف نفسه بأنه من المدافعين عن حقوق (الأقليات) بأن عدد الشاذين من الجنسين في سوريا بلغ في فترة ما ٢٠٪، وبيّنت الاستبانة التي قامت بها كلية الطب في جامعة الملك عبد العزيز في جدة لأكثر من ١٢٠٠ طالب، أن ١٢٪ منهم يمارسون اللواط! في الوقت الذي يحتل فيه لبنان موقع الصدارة في هذا المجال، حيث أصبح لهم جمعياتهم الخاصة التي تدافع عنهم، وأولها جمعية (حلم: حماية لبنانية للمثليين) المتأسسة في العام ٢٠٠٤^(١٣).

و كتبت صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية: (إن الأمن والهدوء سمح للعراقيين أن يتمتعوا بـ «الحريات الأمريكية»، ومن بينها حرية الشذوذ، والتي لم يكن من المتصور أن تحدث قبل بضعة أعوام)^(٤). وقد قام بعض المسلحين كردة فعل على التجاهر بهذه الفاحشة بقتل نحو ٢٥ شاباً ورجلاً لممارستهم الشذوذ في إحدى مدن العراق، وذلك بعد أن تبرأت منهم قبائلهم، فقررت التخلص منهم وإحراق المقاهي التي يتجمعون فيها.

✽ عوامل الانتشار:

عوامل عديدة تساهم في زيادة نسبة المجاهرة في فعل الشذوذ الجنسي، ومن هذه العوامل:

١- العوامل الخارجية:

أ - دور الأمم المتحدة ومنظماتها: بدأ تركيز الأمم المتحدة على تشريع الشذوذ الجنسي في العام ١٩٥١. مع فرض معاهدة الأمم المتحدة للاجئين على الدول تأمين الحماية لأي شخص لديه خشية من (التعرض للاضطهاد نتيجة اسباب عرقية أو دينية أو ترتبط بهويته الجنسية، بانتمائه إلى مجموعة اجتماعية معينة، أو بسبب رأيه السياسي).

وبعد ذلك بات موضوع الشذوذ يأخذ طابعاً أكثر تخصصية مع تلك المؤتمرات والاتفاقيات الدولية التي تعنى بالأمر الجنسي. وفي ديسمبر ٢٠٠٨ وقع ٦٦ بلداً في الجمعية العامة للأمم المتحدة بياناً يتعلق برفع العقوبة عن المثلية.

ب - الدعم الدولي للشاذين جنسياً: فقد فتحت لهم بعض الدول باب اللجوء، ومن بينها (الكيان الصهيوني) الذي أصبح قبلة الشاذين! وهؤلاء غالباً ما يقعون ضحية للاستخبارات الإسرائيلية، أو يتحولون إلى تعاطي البغاء من أجل كسب قوتهم بعد أن رفضهم مجتمعهم.

٢- العوامل الداخلية:

أ - الأسرة التي ينشأ فيها الطفل تنشأة خاطئة بالسماح للذكور باللعب بألعاب البنات وإلباسهم لباس الفتيات، وكذلك تسمية البنات بأسماء الذكور، وأمثال ذلك.

ب - تعرض الطفل في صغره إلى التحرش الجنسي.

ج - غياب التوعية والرقابة على سلوك الطفل وصدقاته.

د - دور الأدب والإعلام في التشجيع على ذلك، من خلال تغيير المسميات وإبراز المبررات وتجميل الصورة وتهوين الأمر

وتقديمه بصورة علنية واضحة. وقد تحدث كتاب (الشذوذ الجنسي في الأدب المصري) للكاتب مصطفى بيومي، عن مديات تناول موضوع الشذوذ بصراحة في كتابات بعض الأدباء المعاصرين أمثال (علاء أسواني) و(نجيب محفوظ) و (يحيى حقي).

❖ الآثار الناجمة عن الشذوذ الجنسي:

١- الخلل في القيم والمعايير الدينية والأخلاقية، وزيادة الاستهتار بالدين، لأنه يحرم الشذوذ بكل أنواعه. ومع تفشي هذا الخلل تكثر الجرائم بكل أنواعها من قتل، وسرقة، وإدمان الخمر، وتعاطي المخدرات، والاعتداء على الأطفال.

٢- انتشار الأمراض بين الشاذين جنسياً، وانتقالها إلى غيرهم أيضاً، وقد تحدث النبي ﷺ في المروي عنه أنه قال : (لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونَ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضُوا)^(١٥). ومن هذه الأمراض تلك المنتقلة بالجنس: الأيدز - الأمراض الزهرية - الوباء الكبدي - متلازمة أمعاء الشواذ - الحمى المضخمة للخلايا.

٣- تقويض عرى الأسرة، وتغير أشكالها الطبيعية المكونة من امرأة ورجل وأطفال، كما يساهم في زيادة نسبة المشكلات الاجتماعية من عنوسة وطلاق وزنى وغيرها.

✽ تنبيهات لمواجهة الشذوذ:

١- ضرورة التشديد على استخدام المصطلح الذي يُظهر قبح صورة هذه الفاحشة، وعدم استبدالها بمصطلحات من قبل (المثلية الجنسية).

٢- العمل على تعديل القانون المحلي لبعض الدول العربية التي لا تنص على عقاب الشذوذ إلا في حالة عدم رضا أحد الأطراف، مع ضرورة تغليظ العقوبة على مرتكبيها، وعدم شرعنة وجودهم.

٣- أهمية التصدي للمطالبات الدولية بتعديل مناهج التدريس حتى تتناسب مع التوجه العالمي الذي يدعو إلى تقبل الشذوذ الجنسي وتقنينه.

٤- التركيز على مبادئ التربية الأسرية الصحيحة، ومراعاة آداب السلوكيات من قبيل التفريق بين الأبناء في المضاجع، وتعليمهم الاستئذان قبل الدخول، وإبعاد الأولاد عن أجواء الميوعة وغيرها.

٥- إيجاد الحلول الاجتماعية والاقتصادية لمسألة العنوسة وتأخر الزواج.

٦- الرقابة على الإعلام، وخاصة المرئي منه الذي يستورد الكثير من البرامج التي تشجع على الشذوذ الجنسي ولو في صورة كوميدية.

❁ الإسلام يواجه هذه الفاحشة:

ولو عدنا إلى تاريخ المجتمعات الإسلامية سنجد أن الإسلام حارب هذه الفاحشة بشدة، وشرّع لها عقوبة عنيفة جداً، قال المحقق الحلي: (وموجب الإيقاب: القتل، على الفاعل والمفعول، إذا كان كلٌّ منهما بالغاً عاقلاً... وفي رواية إن كان مُحَصَّنًا رُجِمَ، وإن كان غير مُحَصَّنٍ جُلِدَ، والأوّل أشهر. ثمّ الإمام مخيّر في قتله، بين ضربه بالسيف، أو تحريقه، أو رجمه، أو إلقائه من شاهق، أو إلقاء جدار عليه. ويجوز أن يجمع بين أحد هذه وبين تحريقه)^(١٦). وفي الخبر عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) قال: (قال أمير المؤمنين (عليه السلام): لَوْ كَانَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُرْجَمَ مَرَّتَيْنِ لُرْجِمَ اللُّوطِيّ)^(١٧).

وقد أكد الباحثون على أن هذه الفاحشة كانت موجودة في

المجتمعات العربية في العهد الجاهلي، فقد كتب د. جواد علي: (والشدوذ الجنسي معروف عند الجاهليين أيضاً كما هو عند جميع الأمم منذ القدم، وليس من المعقول استثناء الجاهليين من ذلك، بدليل ورود النهي عنه والتحذير منه في القرآن الكريم وفي الحديث... ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ﴾^(١٨) ﴿وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾^(١٩)، فنسب فعل إتيان الرجال بعضهم بعضاً إلى قوم لوط، واشتق الفعل من اسمه. ونرى أن الآيات قد استعملت: «لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ»، للتعبير عن هذا الفعل. واستعمل المفسرون هذا التعبير وتعبير «المجامعة» للتعبير عنه. وقد استعمل الجاهليون «لاط» في معان أخرى لا صلة لها بالمعنى المذكور. وفي ذلك دلالة واضحة على أن استعمال «اللواط» إنما وقع في الإسلام... وذكر «ابن قيم الجوزية» أن هذا الفعل لم يكن معروفاً بين العرب ولم يرفع إلى الرسول في أيامه حادث به)^(٢٠).

* الدور الأموي :

وأعاد بنو أمية سنن الجاهلية بما فيها الفواحش بأنواعها إلى المجتمع، وجاهروا فيها، بل وتجروؤوا في ذلك جرأة عظيمة، وسأخذ الوليد بن يزيد نموذجاً على المدى الذي بلغه السلوك الأموي في هذا الاتجاه، والفساد العظيم الذي تعمدوا نشره.

في كتاب (تاريخ الخلفاء) لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ) حول سيرة الخليفة الأموي الوليد بن يزيد ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم قال : (وكان فاسقاً شريباً للخمر منتهكاً حرماً لله، أراد الحج ليشرب فوق ظهر الكعبة!! فمقتته الناس لفسقه وخرجوا عليه، فقتل في جمادى الآخر سنة ست وعشرين)^(٢١).

ونقل الشاكري عن شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت: ٧٤٩هـ) في (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار): (الوليد بن يزيد الجبار العنيد، لقباً ما عداه، ولقماً سلكه فما هداه، فرعون ذلك العصر الذاهب، والدهر المملوء بالمعائب، يأتي يوم القيامة يقدم قومه فيوردهم النار و يرددهم العار، وبئس الورد المورود، و المورد المردي في ذلك الموقف المشهود، رشق المصحف بالسهم وفسق ولم يُخَفِ الآثام)^(٢٢).

وقال الحافظ الذهبي (ت٧٤٨هـ) في موسوعته (تاريخ الإسلام) وهو يروي مقتل الوليد: (فتفرق الناس عن الوليد فأتوا العباس وعبد العزيز ثم ظاهروا الوليد بين درعين وأتوه بفرسين: السندي، والرائد، فركب وقاتل، فبادأهم رجل: اقتلوا عدو الله قتلة قوم لوط! ارموه بالحجارة، فلما سمع ذلك دخل القصر فأغلقه) فلما اقتحموا عليه المكان ولا مهم قال أحدهم: ما ننقم عليك في أنفسنا، لكن ننقم عليك انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله) ثم لما قُتل احتزَّ رأسه ونُصب على رمح، قال الذهبي: (... فنظر إليه أخوه سليمان ابن يزيد فقال: بعداً له، أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً، ولقد راودني على نفسي!... ولم يصح عن الوليد كفر ولا زندقة، نعم اشتهر بالخمر والتلوط فخرجوا عليه لذلك)^(٢٣).

وقال الشيخ محمد هادي اليوسفي (معاصر): (وقرأ ذات يوم ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ﴾^(٢٤) فدعا بالمصحف فنصبه غرضاً للنشأ وأقبل يرميه وهو يقول:

أتوعد كل جبار عنيد فهذا أنا ذاك جبار عنيد
 إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل : يا رب خرقني الوليد
 وكان الوليد هذا مهملاً لأمره قليل العناية بأطرافه، وكان صاحب
 ملاه وقيان، وإظهار للقتل والجور، وتشاغل عن أمور الناس بشرب
 ومجون، فبلغ من مجونه أنه أراد أن يبني على الكعبة بيتاً يجلس فيه
 للهو، ووجه مهندساً لذلك مجوسياً ليبني له على الكعبة مشربة
 للخمر!! وأراد أن ينصب قبة ديباج على الكعبة ويجلس فيها ومعه
 الخمر، فخوفه أصحابه من ثورة الناس فامتنع^(٢٥).

وإذا كان الوليد هذا يمثل الحقبة الأخيرة من الحكم الأموي،
 فإن الفساد بالفسق والفجور وارتكاب ما حرم الله جهاراً عياناً قد
 سبقه بعقود، وقد جاء في (مروج الذهب) للمؤرخ المسعودي
 (ت ٣٤٦هـ): (وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقُرود
 وفهود ومنادمة على الشراب، وجلس ذات يوم على شرابه، وعن
 يمينه ابن زياد، وذلك بعد قتل الحسين، فأقبل على ساقيه
 فقال :

اسقني شربةً تُروِّي مشاشي ثم ملّ فاسق مثلها ابن زياد
 صاحب السرِّ والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي

ثم أمر المغنين فغنوا به. وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهي، وأظهر الناس شرب الشراب، وكان له قرد يكنى بأبي قيس يحضره مجلس منادمته، ويطرح له متكاً^(٢٥).

ولذا فقد صرح الإمام الحسين عليه السلام أكثر من مرة أن يزيد ابن معاوية متصف بهذه الصفات بما يسلبه عن صلاحية الكون في هذا الموقع، ففي (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) حوار جرى بين معاوية بن أبي سفيان وبين عدد من شخصيات المدينة المنورة، ومن بينهم الإمام الحسين عليه السلام حين وفد معاوية لتسويق خلافة ابنه يزيد من بعده، فكان من ذلك: (قال معاوية: وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً، فيزيد والله خير لأمة محمد منك. فقال الحسين: هذا هو الإفك والزور، يزيد شارب الخمر، ومشتري اللهو خير مني؟)^(٢٦).

وأضاف ابن قتيبة أن معاوية خطب في المدينة ممتدحاً يزيد ومرغباً في البيعة له بالخلافة من بعده: (فتيسر ابن عباس للكلام، ونصب يده للمخاطبة، فأشار إليه الحسين وقال:

على رسلك، فأنا المراد، ونصيبني في التهمة أوفر، فأمسك ابن عباس، فقام الحسين، فحمد الله، وصلى على الرسول ثم قال: أما بعد يا معاوية، فلن يؤدي القاتل، وإن أطنب في صفة الرسول ﷺ من جميع جزء، وقد فهمت ما لبست به الخلف بعد رسول الله من إيجاز الصفة والتنكب عن استبلاغ النعت، وهيهات هيهات يا معاوية: فضح الصبح فحمة الدجى، وبهرت الشمس أنوار السرج، ولقد فصلت حتى أفطرت، واستأثرت حتى أجحفت، ومنعت حتى محلت، وجزت حتى جاوزت ما بذلت لذي حق من اسم حقه بنصيب، حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر، ونصيبه الأكمل، وفهمت ما ذكرت عن يزيد من اكتماله، وسياسته لأمة محمد، تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تنعت غائباً، أو تخبر عما كان مما احتويته بعلم خاص، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه فخذ ليزيد فيما أخذ فيه، من استقراءه الكلاب المهارشة عند التهارش، والحمام السبق لأترابهن، والقيان ذوات المعازف وضرب الملاهي تجده باصراً، ودع عنك ما تحاول، فما أغناك أن تلقى الله من وزر هذا الخلق بأكثر مما أنت لاقية، فوالله

ما برحت تقدح باطلاً في جور، وحنقاً في ظلم حتى ملأت
الأسقية، وما بينك وبين الموت إلا غمضة، فتقدم على عمل
محفوظ، في يوم مشهود، ولات حين مناص، ورأيتك عرضت
بنا بعد هذا الأمر، ومنعنا عن آبائنا تراثاً، ولقد - لعمر الله -
أورثنا الرسول عليه الصلاة والسلام ولادة وجئت لنا بها، أما
حججتم به القائم عند موت الرسول، فأذعن للحجة بذلك،
ورده الإيمان إلى النصف، فركبتم الأعاليل، وفعلتم الأفاعيل،
وقلتم كان ويكون، حتى أتاك الأمر يا معاوية من طريق كان
قصدها لغيرك، فهناك فاعتبروا يا أولي الأبصار...^(٢٧).

وحول ما جرى في محضر الوليد بن عتبة حين بلغه نبأ موت
معاوية: (ثم أقبل الحسين على الوليد بن عتبة وقال: أيها الأمير!
إننا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحل
الرحمة، وبنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب خمر
قاتل النفس المحرمة معلن بالفسق، مثلي لا يبايع لمثله)^(٢٨).

وقد كتب الشيخ عبدالله العلايلي (ت ١٤١٧هـ) في كتابه:
(الإمام الحسين) معلقاً على هذا المشهد: (لقد كشف الإمام
الشهيد عن برنامجه وخطته التي دفعته إلى الثورة والخروج،

وكأنما أراد أن يسجل على الباطل بطلانه، وأن يجعل للحق كوة يرتفع منها صوته على الدوام، وكذلك تم الأمر على أن يتعالى من هذه الكوة الصوت. إذ زلزل دولة الظالم وحطم سلطان الباغي وفرق العادي كل ممزق وأدال به إلى حيث المهوى السحيق. هذا البرنامج الذي أثاره الإمام الحسين عليه السلام ووطن نفسه عليه إلى النهاية، فمن فمه الطاهر الهادي، قال يخاطب الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: «أيها الأمير، إنا بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب الخمر وقاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبيع مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أينأ أحق بالبيعة والخلافة». ولم يلبث أن يعلن رأيه الصريح في فلسفة البيعة ومعنى الخلافة وصفة الخليفة، يقول: واجب الخليفة أن يستحيل القانون والشرعية في نفسه وجداناً وضميراً وعاطفة وصدى شعورياً عميقاً، وإلا كانت خيانتة أقرب إليه من نفسه، ودينه وتقاليده وعنعنات الأمة جميعها، أهون عنده من عفطة عنز، «فإذا فسق الخليفة عاد على رأس الأمة شريراً، يقذف دائماً بالشر والشرر، ويرمي دائماً بالويل والثبور».

ثم ينتقل الإمام عليه السلام بنا إلى روح المبايعة ومعنى العهدة وفلسفة الخلافة، وهنا يلزمنا الكثير من الأناة والتفهم، لأن الإمام يجمل كل معناها في كلمة واحدة وهي: «ومثلي لا يبايع مثله». هذا معنى البيعة في منطق الحسين عليه السلام وهذه فلسفتها عنده، وهي الحقيقة لمن تدبرها، ومن ثم كان لها تبعات ثقيلة الإصر لا يتحملها الكبير بسهولة... من أراد أن يلتمس عظمة المبدأ عند الحسين عليه السلام، يجده في وصيته لأخيه محمد ابن الحنفية حيث يقول: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن أمر بالمعروف وأنهي عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن ردّ علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين». وفي تصريحه الخطير في بيت الإمارة وفي حظيرة الحكم ورواق السلطة الذي أعلن فيه رأيه بدون مبالاة ولا وجل ولا خوف، ورد على الوليد وملء قوله جأش رابط وشجاعة نادرة واعتداد بالمبدأ واستحكام في العقيدة وقد جاء في الروايات: دعا الوليد وهو والي المدينة الحسين عليه السلام، ونعى له معاوية، فاسترجع، وقرأ له كتاب يزيد في أخذ البيعة، فقال

الحسين عليه السلام، إني لا أراك تقنع ببيعتي ليزيد سرّاً حتى أبايعه
 جهراً فيعلم الناس ذلك، فقال الوليد: أجل، فقال الحسين عليه السلام :
 تصبح وترى رأيك في ذلك، فقال الوليد: انصرف على اسم الله
 تعالى حتى تأتينا مع جماعة الناس؛ فقال مروان للوليد: والله
 لئن فارقك الحسين الساعة ولم يبايع لا قدرت منه على مثلها
 أبداً، ولكن احبس الرجل لا يخرج حتى يبايع، أو تضرب عنقه،
 فقال الحسين عليه السلام لمروان: ويلي عليك يا ابن الزرقاء، أنت
 تأمر بضرب عنقي أم هو، كذبت والله ولؤمت، ثم التفت إلى
 الوليد، وقال: «يا أمير، إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، بنا
 فتح الله وبنا ختم، ويزيد فاسق فاجر شارب الخمر قاتل النفس
 المحرمة معلن بالفسق والفجور، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن
 نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أينأ أحق بالبيعة والخلافة».
 فقال الوليد: ويحك، إنك أشرت عليّ بذهاب ديني ودنياي،
 والله ما أحب أن أملك الدنيا بأسرها وإني قتلت حسيناً، سبحان
 الله أقتل حسيناً لما أن قال لا أبايع.. والله ما أظن أحداً يلقي الله
 بدم الحسين إلا وهو خفيف الميزان لا ينظر الله إليه يوم القيامة
 ولا يزكيه وله عذاب أليم^(٢٩).

المصادر والتعليقات الختامية:

- (١) العنكبوت: ٢٨-٣٠ .
- (٢) الأعراف: ١٨٩ .
- (٣) النساء: ١ .
- (٤) الحجرات: ١ .
- (٥) الحر العاملي: وسائل الشيعة - ح ٢٥٧٥١ .
- (٦) الأعراف: ١٥٧ .
- (٧) المؤمنون: ٧ .
- (٨) من مقال بعنوان ظاهرة الشذوذ في العالم العربي: د. نهى قاطرجي، نقلاً عن عدنان أبو زيد: الشذوذ الجنسي يتفشى في أوساط النخب العلمية .
- (٩) العهد القديم: سفر اللاولين - ١٨ : ٢٢ .
- (١٠) العهد الجديد: رسالة بولس إلى أهل كورنثوس - الإصحاح السادس: ١٠ .
- (١١) من مقال بعنوان ظاهرة الشذوذ في العالم العربي: د. نهى قاطرجي، نقلاً عن الأب إنطوان ملكي: موقف أرثوذكسي من الشذوذ الجنسي .
- (١٢) ن.م .
- (١٣) حسن عثمان: مدونات مكتوب، صحيفة نيويورك تايمز: الحرية الأميركية نشرت الشذوذ الجنسي بالعراق .
- (١٤) ابن ماجه: السنن - ح ٤٠١٩ .
- (١٥) المحقق الحلبي: شرائع الإسلام - ج ٤ - ص ٩٤٢ .
- (١٦) الكليني: الكافي - ح ٧٧٣ .
- (١٧) العنكبوت: ٢٨-٢٩ .
- (١٨) الأعراف: ٨٠-٨١ .

- (١٩) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - ج ١ - ص ٢٦٤١ .
- (٢٠) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ج ١ - ص ٢٢٠ .
- (٢١) حسين الشاكري: موسوعة المصطفى والعترة - ج ١٠ - ص ١٥٤ .
- (٢٢) الذهبي: تاريخ الإسلام - ج ٨ - ص ٢٩٣-٢٩٤ .
- (٢٣) إبراهيم: ١٥-١٦ .
- (٢٤) محمد هادي اليوسفي: موسوعة التاريخ الإسلامي - ص ٤٢-٤٣ .
- (٢٥) المسعودي: مروج الذهب - ج ١ - ص ٣٧٧ .
- (٢٦) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة - ج ١ - ص ٢١١ .
- (٢٧) ن.م. ص ٢٠٨-٢١٠ .
- (٢٨) أحمد بن أعثم: الفتوح - ج ٥ - ص ١٤ .
- (٢٩) موقع بينات bayynat.org نقلاً عن كتاب (الإمام الحسين) للدكتور عبدالله العلايلي .



الفساد المالي

• ثالثاً - الغش التجاري: قوم شعيب نموذجاً:

هناك تركيز قرآني في الحديث عن قصة النبي شعيب عليه السلام مع قومه بخصوص الغش التجاري الذي كانوا يمارسونه على استعمال كلمة (الفساد) باشتقاقاتها، فلاحظ:

• ﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ

وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُمْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ .

• ﴿وَالِىَ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ، وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴿٢﴾ .

• ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ، وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿٣﴾ .

• ﴿وَالِى مَدِينَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا
الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾^(٤). فما السر في
ذلك؟

١- الأمن الاقتصادي هو جزء مهم لتحقيق أمن المجتمع ونموه
ورخائه، وفقدان ذلك يعني فتح الباب على مصراعيه لكي ينخر
الفساد الاجتماعي والأخلاقي والسياسي والإداري في أسس
المجتمع، لتكون النتيجة هي الانهيار، سواء من خلال نشوب
الصراعات الداخلية بين طبقات المجتمع المتكوّنة نتيجة ذلك
الفساد، أو من خلال الغزو الخارجي الذي يطمع في الكيانات
الضعيفة أو للانتقام من السلوك الاقتصادي الفاسد لذلك
المجتمع، أو نتيجة التهرؤ الداخلي لكيان ذلك المجتمع بما
يؤدي إلى تعاقب الكوارث الناجمة عن سوء الإدارة والإهمال
والتراخي في العمل وما إلى ذلك.

• النموذج السبئي:

تماماً كما جرى لسبأ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ
جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلَدَةٌ
طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ

بَجَتَّيْهِمْ جَتَّتَيْنِ ذَوَاتِي أَكُلَ خَمْطٍ وَأَثْلَ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ،
ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿٥﴾.

فبعض الأخبار تتحدث عن فئران نخرت في السد فتهدم
وأغرق المملكة ودمرها، فإن صح ذلك، فهل يمكن لها أن تنخر
سدًا عظيمًا في ليلة؟ لا بد أن ذلك تم في مدة طويلة، فلم لم
يلحظ ذلك أحد؟ أليس هو التراخي والإهمال والفساد؟ ففي
مملكة كسباً تعتمد في الأساس على مشروع ضخم وحيوي
كالسد لا بد وأن تكون هناك جهة مسؤولة عنه للصيانة والمتابعة،
فكيف لم تكتشف تواجد الفئران ودورها التخريبي؟ وإلى أي
مدى كان للتراخي والفساد دور في تلك الفاجعة التي أنهت
حضارتهم؟

ولم يقتصر إفسادهم على الداخل، بل جاوزه إلى المجتمعات
الصغيرة والمستضعفة التي كانت تقع في طريق التجارة إليهم:
﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا
فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ، فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ
بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ
مُمَرَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾^(٦)، ولعل ما ورد

بصيغة الدعداد في الآية إنما يمثل لسان حالهم، حيث عملوا على تدمير تلك القرى اقتصادياً وأمنياً حسداً منهم وبغياً، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا بما يعود على سبأ بالفائدة المطلقة، وغاب عنهم أن دمار هذه القرى سيؤثر سلباً على حركة القوافل التجارية التي تحتاج إلى محطات استراحة وتزود بالطعام والماء والاحتياجات الضرورية، بالإضافة إلى ما تمثله تلك القرى من ضمانات أمنية للقوافل المسافرة، على عكس الطرق الفارغة تقريباً من المجتمعات السكانية التي يكثر فيها اللصوص وقطاع الطرق.

✽ المن على قريش:

وقد تحدث القرآن عن المنّ الإلهي على قريش من جهة الأمن الاقتصادي الذي حقق لهم الأمن الاجتماعي حيث قال ﷺ: ﴿لَا يَلَا فُ قُرَيْشٍ، إِلَّا فَنَهُمْ رَحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَأَمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾^(٧). والذي نلاحظ فيه وجود التلازم بين النشاط الإنساني التجاري وبين الأمن والاستقرار.

وقدّم صورة مقابلة لذلك حيث قال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً

كَانَتْ أَمَنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ
اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ .

❁ مقومات النجاح:

٢- قد يتصور البعض أن المعاملة التجارية الناجحة (بيع، شراء، إجارة، مضاربة، شركة.. الخ) مجرد حنكة وشرطارة وجرأة ومعاملات حسابية دقيقة ودراسة جدوائية وحسن معاملة وأمثال ذلك، إلا أن الواقع يؤكد على أنها تحتاج بشكل كبير إلى الصدق في التعامل، والوفاء بالعهود والمواثيق، والالتزام بالأمانة، وعدم التجاوز على حقوق الآخرين.

وهذا كله من العوامل المهمة التي تضمن النشاط والفاعلية للتعاملات التجارية والاقتصادية، من خلال ضخ المزيد من الأموال وتوفير القدرة المالية وتحقيق زيادة الإنتاج، والتداول في نوعية الإنتاج الجيد، والتنافس في هذا الأداء.

ثم إن التزام الصدق والأمانة في عالم التجارة والاقتصاد له مردوده الاجتماعي من خلال شيوع قيم الثقة والصدق والأمانة وحسن الظن في المجتمع، مقابل قيم الجشع والظلم والاعتداء وسوء الظن بين أفراد المجتمع، وهي من المسائل المهمة في

حفظ المجتمع واستقراره أمام العوامل المؤدية لزعزعة الروابط الاجتماعية وتماسك المجتمع، وتهدد استقراره، وهو من أوضح صور الفساد في الأرض.

٣- الإسلام يهتم كثيراً بمسألة حقوق الناس، ولا يسمح بسلب أو انتقاص الحقوق من دون وجه حق، واعتبر ذلك من أشد الظلم، ففي نهج البلاغة روى الشريف الرضي عن علي عليه السلام: (فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْرًا فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرًّا فَادْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله كَانَ يَقُولُ: «يَا بَنَ آدَمَ، اْعْمَلِ الْخَيْرَ وَدَعْ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ. أَلَا وَإِنَّ الظُّلْمَ ثَلَاثَةٌ: فَظُلْمٌ لَا يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يُطْلَبُ: فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُغْفَرُ فَالشَّرْكُ بِاللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ الْهَنَاتِ، وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يُتْرَكُ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضَهُمْ بَعْضًا. لَيْسَ هُوَ جَرَحًا بِالْمُدَى وَلَا ضَرْبًا بِالسَّيَاطِ، وَلَكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ»^(٩).

ولذا نجد عليه السلام حساساً شديداً من هذه الناحية في علاقته مع الآخرين، حتى قال: (وَاللَّهُ لَأَنْ أَبَيْتَ عَلَى حَسَكِ السَّعْدَانِ «نوع من الشوك» مُسَهِّدًا «مقيداً»، أَوْ أُجِرَ فِي الْأَغْلَالِ مُصَفِّدًا،

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَالِمًا لِبَعْضِ الْعِبَادِ، وَغَاصِبًا لَشَيْءٍ مِنَ الْحُطَامِ).

ثم يرتقي في ذلك معتبراً أن الظلم في نفسه قبيح ولو بحق الكائنات الأخرى المستحقرة، ولذا يتنزّه عن ظلمها ولو بمثل الصورة التالية التي لا نقيم لها وزناً، ولكنه ﷺ يقيم لها وزناً أعظم من خيرات الأرض كلها: (وَاللَّهُ لَوْ أُعْطِيَ الْأَقَالِيمَ السَّبْعَةَ بِمَا تَحْتَ أَفْلَاقِهَا، عَلَى أَنْ أَعْصِيَ اللَّهُ فِي نَمْلَةٍ أَسْلَبَهَا جَلَبَ شَعِيرَةٍ مَا فَعَلْتُهُ) ^(١).

✽ الفساد المالي:

من هنا نفهم لم كل هذا الربط القوي بين ممارسات قوم شعيب ﷺ وبين صفة الفساد. وإذا ما وسّعنا دائرة الحديث عن الفساد التجاري ليشمل الفساد المالي بصورته الأوسع بما يشمل السياسات المالية للحكومات ومؤسسات المجتمع المدني والرشاوى ووضع اليد على الممتلكات العامة أو الخاصة بالقوة أو بالحيلة وغير ذلك، لأدركنا حجم الخطر الذي يهدد المجتمعات عندما يستشري فيها الفساد المالي بعنوانه الأوسع.

وقد كتب عصام البشير بحثاً بعنوان: (الفساد المالي وأثره على الفرد والمجتمع): (إن ثلث الفساد المالي مركزه الوطن العربي، ونصفه في العالم الإسلامي. هذا ما قاله تقرير منظمة الشفافية العالمية الصادر عام ٢٠٠٥م، فقد جاء في التقرير أن حجم الفساد المالي في العالم يقدر بألف بليون دولار، منها ثلاثمائة بليون في الوطن العربي وحده، أي أن حجم الفساد المالي في الوطن العربي يساوي ثلث الفساد العالمي، فإذا أضفنا حجم الفساد في الدول القائمة في العالم الإسلامي الأخرى فإن حجم الفساد في العالم الإسلامي يتجاوز نصف الفساد العالمي، والفساد المقصود في هذا التقرير ينحصر في سوء استعمال الوظيفة في القطاع العام من أجل تحقيق مكاسب شخصية. فكيف لو تحدث التقرير عن أنواع الفساد الأخرى الأخلاقية والبيئية والإدارية والتعسف في استغلال السلطة ومواقع المسؤولية والاجتماعية وحتى الذائقة الفنية والأدبية؟!).

ثم ضرب أمثلة من واقع الفساد المالي وهي: (السرقه - قبول الرشوة - المحسوبية والمحاباة) وتحدث عنها بشئ

من التفصيل، ثم ذكر آثار ذلك الفساد بصورة موسعة جادت ضمن العناوين التالية: (إهدار حقوق ذوي الكفاءات معتبراً إياه نوعاً من أنواع أكل أموال الناس بالباطل - الإحساس بالإحباط والظلم والقهر - ضعف الانتماء - الانصراف عن العمل المنتج - إهدار الفرصة البديلة في توفير فرص عمل حقيقية - تهية الفرد لارتكاب الجرائم - انتشار أنواع من الممارسات تقع تحت ظاهرة الاقتصاد الأسود مثل الدعارة، وتجارة المخدرات، والرشوة، وتهريب السلع غير المسموح بتداولها، وتجارة السلاح غير المشروعة، وتجارة الأطفال، وتجارة الأعضاء البشرية - تدمير البيئة وذلك من خلال فساد الزراعات والمياه والهواء عن طريق تجارة أو صناعة مستلزمات غير صالحة للاستهلاك الآدمي أو استخدام معدلات غير مسموح بها من المواد الكيماوية - انتشار ظاهرة غسيل الأموال في محاولة لإكساب الدخول القدرة من ممارسة الفساد صفة الشرعية - الاستهلاك ببذخ بمعنى شيوع مظاهر استهلاكية لا تعبر عن دخول حقيقية؛ فالذي يحصل على دخله من الفساد يسعى لإنفاقه ببذخ وبسهولة كذلك - وقوع الاقتصاد الوطني

في براثن العصابات الدولية وذلك لأن من يمارسون الفساد في بلادهم لا يأبهون بقضية الوطنية والحرص على المصلحة العليا للبلاد بل يبيعونها لعصابات دولية تسعى للتحكم في مقدراته - إهدار دولة القانون - حيث إن أنشطة الفساد تحكمها قوانين غير مكتوبة يتعارف عليها ممارسو الفساد، وبالتالي تتعلق البيئة بالفساد المالي، لأن الذين يفسدونهم يسعون للمال السريع - إرباك السياسات الاقتصادية لصعوبة الوقوف على بيانات حقيقية تعتمد عليها السياسة الاقتصادية في اعتماد آلياتها - انتشار ظواهر اقتصادية سلبية مثل حرق السلع أو المضاربات في الأراضي والبورصات أو العملات للسعي من أجل غسيل أموال الفساد - عدم دقة بيانات المؤشرات الرئيسية للاقتصاد القومي لأن الأموال الناتجة من ممارسة الفساد لا ترتبط بالمقومات الاقتصادية الوطنية، كالنتاج المحلي الإجمالي، أو المشاركة في مشروعات خطة التنمية للدولة؛ لأنه عادة ما تضر أموال الفساد بموارد الدولة لأنها تحقق في الخفاء ولا يتم محاسبتها ضريبياً - التدهور الاقتصادي - الفساد الاجتماعي - إهدار قيم المجتمع نحو الثروة والعمل الصالح^(١١).

✽ أسس المعالجة:

ونعود إلى الآيات التي عرضت قصة النبي شعيب عليه السلام، فهي تتحدث أيضاً عن أسس معالجة هذا النبي الكريم للفساد المستشري في مجتمعه.. ويمكن تلخيصها في التالي:

١- الانطلاق أولاً من قاعدة الإيمان بالله عز وجل وحده لا شريك له، ليكون منطلق الإصلاح واحداً، ولتعتمد أسس المعالجة على منهجية نابعة من مصدر واحد، وليكون الهدف من الإصلاح واحداً أيضاً.

٢- التأكيد على آثار ذلك الفساد على كافة الأصعدة التي تهدد مجتمعه بالانهيار، قال: ﴿وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وتعثوا تعني: لا تفسدوا إفساداً شديداً من خلال القتل وغيره.

٣- التشجيع على الكسب الحلال وبركته وكفايته، قال: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا يُغني عن الطرق المحرمة في الكسب والتي تنتزع منها البركة، وتعود بالوبال على الفرد والمجتمع.

٤- يبدو أن مسألة الحرية الفردية بالنسبة إلى قومه كانت قضية حساسة، فقد قالوا له: ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا

أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴿٤﴾، ولذا تعامل معها النبي شعيب بحذر، وواجه مقاومة عنيفة من هذا المنطلق، مما دفعه للتأكيد على أن دوره هو مجرد الإصلاح ما استطاع، لا القهر والإجبار، قال: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾.

٥ التأكيد على إخلاصه في هذه الدعوة، وحفظ نفسه عن المغريات التي قد تكون مباحة ولكنها تزل من خلالها أقدام الرجال، لكي تكون لديه المصدقية في ما يقدم عليه، قال ﷺ على لسان النبي شعيب ﷺ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾.

❁ الإمام الحسين يواجه الفساد:

ومما سبق يتبين أن الفساد الذي أشار إليه الإمام الحسين ﷺ في أكثر من موقع كمبرر شرعي وعقلي لمواجهة باطل الحكومة الأموية المتمثلة في يزيد بن معاوية يمكنه أن يشمل جانب الفساد المالي والاقتصادي.. فهل من شواهد على مثل ذلك الفساد؟

كان معاوية يعتبر أن المال مال الله، وأنه خليفة الله في أرضه، ومن حقه من هذا الموقع أن يصنع في مال الله ما يشاء دون

حساب. وقد ظهرت بوادر ذلك حينما كان والياً على الشام، فأثار الصحابي الجليل أبوذر الغفاري رضي الله عنه في وجهه هذه القضية محتجاً بشدة ومنكراً مخالفة التعاليم والمفاهيم الإسلامية في هذا الإطار، وأحداث ذلك معروفة ومشهورة وسأكتفي بما ذكره الشيخ عبدالحسين الأميني (ت ١٣٩٠هـ) في كتابه (أبوذر) قال: (بنى معاوية الخضراء بدمشق فقال: يا معاوية إن كانت هذه الدار من مال الله فهي الخيانة، وإن كانت من مالك فهذا الإسراف. فسكت معاوية، وكان أبوذر يقول: والله لقد حدثت أعمال ما أعرفها، والله ما هي في كتاب الله ولا سنة نبيه، والله إني لأرى حقاً يطفأ، وباطلاً يُحْيى، وصادقاً يكذب، وأثرة بغير تُقى، وصالحاً مستأثراً عليه. فقال حبيب بن مسلمة لمعاوية: إن أباذر مفسد عليك الشام فتدارك أهله إن كانت لكم به حاجة. فكتب معاوية إلى عثمان فيه فكتب عثمان إلى معاوية: أما بعد فاحمل جندبا إلي على أغلظ مركب وأوعره فوجه معاوية من سار به الليل والنهار...) (١٢).

كما لخص سعيد بن العاص الأموي نظرة الأمويين إلى ذلك بقوله حين قدم الكوفة كما في تاريخ الطبري: (إنما هذا السواد

بستان لقريش) ورد عليه مالك الأشتر قائلاً: (أتزعم أن السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا)^(١٣).

وقد ذكر المسعودي في (مروج الذهب) بعض الأخبار التي توضّح بعض معالم الفساد المالي: (قال معاوية يوماً، وعنده صعصعة وكان قدم عليه بكتاب علي وعنده وجوه الناس: الأرض لله، وأنا خليفة الله، فما آخذ من مال الله فهو لي، وما تركت منه كان جائزاً لي، فقال صعصعة:

تمنيك نفسك ما لا يكو ن جهلاً معاوي لا تأثم

فقال معاوية: يا صعصعة، تعلمت الكلام؟! قال: العلم بالتعلم، ومن لا يعلم يجهل، قال معاوية: ما أحوجك إلى أن أذيقك وبال أمرك! قال: ليس ذلك بيدك، ذلك بيد الذي لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها، قال: ومن يحول بيني وبينك. قال: الذي يحول بين المرء وقلبه، قال معاوية: اتسع بطنك للكلام كما اتسع بطن البعير للشعير، قال: اتسع بطن من لا يشبع، ودعا عليه من لا يجمع)^(١٤).

وذكر اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) في تاريخه حول سياسة معاوية:

(واستصفى أموال الناس فأخذها لنفسه). وقال : (أخرج معاوية من كل بلد ما كانت ملوك فارس تستصفيه لأنفسها من الضياع العامرة وجعله صافية لنفسه، فأقطعه جماعة من أهل بيته. وكان صاحب العراق يحمل إليه من مال صوافيه في هذه النواحي مائة ألف ألف درهم، فمنها كانت صلواته وجوائزها، واستقر خراج مصر في أيام معاوية على ثلاثة آلاف ألف دينار)^(١٥).

وفي هذا الإطار نصوص كثيرة جداً ذكرتها مصادر التاريخ، وما سبق صورة من صور الفساد المالي في عهده، وله صور أخرى من قبيل ما جاء في (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة أن سعيد بن عثمان بن عفان جاء معاتباً معاوية حين أعلن يزيداً خليفة من بعده فقال : (إذا أبيت فأعطني مما أعطاك الله. فقال معاوية: لك خراسان. قال سعيد: وما خراسان؟ قال : إنها لك طعمة وصلة رحم، فخرج راضياً، وهو يقول :

ذكرت أمير المؤمنين وفضله فقلت جزاء الله خيراً بما وصل
وقد سبقت مني إليه بوادر من القول فيه آفة العقل والزلل
فعاد أمير المؤمنين بفضله وقد كان فيه قبل عودته ميل
وقال خراسان لك اليوم طعمة فجوزي أمير المؤمنين بما فعل

.... فلما انتهى قوله إلى معاوية، أمر يزيد أن يزوده، وأمر إليه بخلعة، وشيعه فرسخاً^(١٦).

وفي كتاب (الكامل في التاريخ) لعزالدين ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٠هـ) أنه: (وفد الأحنف بن قيس وجارية بن قدامة السعديان والجون بن قتادة العبشمي والحتات بن يزيد أبو منازل المجاشعي إلى معاوية بن أبي سفيان، فأعطى كل رجل منهم جائزة مائة ألف، وأعطى الحتان سبعين ألفاً. فلما كانوا في الطريق ذكر كل منهم جائزته. فرجع الحتان إلى معاوية فقال: ما ردك؟ قال: فضحتني في بني تميم! أما حسبي صحيح؟ أولست ذا سن؟ أأست مطاعاً في عشيرتي؟ قال: بلى. قال: فما بالك خسست بي دون القوم وأعطيت من كان عليك أكثر ممن كان لك؟ وكان حضر الجمل مع عائشة، وكان الأحنف وجارية يريدان علياً، وإن كان الأحنف والجون اعتزلا القتال مع علي لكنهما كانا يريدانه. قال: إني اشتريت من القوم دينهم، ووكلتك إلى دينك ورأيك في عثمان، وكان عثمانياً. فقال: وأنا فاشتر مني ديني. فأمر له بإتمام جائزته، ثم مات الحتان فحبسها معاوية)^(١٧).

ومن صور الفساد المالي التي انتهجت اتباع سياسة الحرمان المالي لتركيع المعارضين أو لإحداث تغيير في التركيبة السكانية في البلدة لغرض سياسي أو لتكوين ثروات بطريقة غير مشروعة، وكنموذج على ذلك ما ذكره ابن قتيبة في (الإمامة والسياسة) من أن معاوية أجبر أهل يثرب على بيع أملاكهم واشتراها بأبخس الأثمان، وعندما أرسل القيم على أملاكه لتحصيل وارداتها منعه عنها، وقابلوا حاكمهم عثمان ابن محمد الثقفي وقالوا له: (قد علمت أن هذه الأموال كلها لنا، وأن معاوية أثر علينا في عطائنا، ولم يعطنا قط درهما فما فوقه، حتى مضنا الزمان، ونالتنا المجاعة، فاشتراها منا بجزء من مئة من ثمنها، فأغلظ لهم عثمان في القول، وأغلظوا له)^(١٨).

وكتب الشيخ باقر شريف القرشي (ت ١٤٣٣هـ) في كتابه (حياة الإمام الحسين) في هذا الإطار: (وانتشر الفقر في بيوت الأنصار، وخيم عليهم البؤس حتى لم يتمكن الرجل منهم على شراء راحلة يستعين بها على شؤونه، ولما حج معاوية واجتاز على يثرب استقبله الناس، ومنهم الأنصار وكان أكثرهم مشاة فقال لهم: ما منعكم من تلقي كما يتلقاني الناس؟ فقال له

سعيد بن عباد: منعنا من ذلك قلة الظهر، وخفة ذات اليد، وإلحاح الزمان علينا، وإيثارك بمعروفك غيرنا. فقال له معاوية باستهزاء وسخرية: أين أنتم عن نواضح المدينة؟ فسدد له سعيد سهماً من منطقته الفياض قائلاً: نحرناها يوم بدر، يوم قتلنا حنظلة بن أبي سفيان^(١٩).

ويذكر اليعقوبي أنه بعد استشهاد الإمام الحسين عليه السلام: (وأخذ ابن الزبير عبد الله بن عباس بالبيعة له، فامتنع عليه، فبلغ يزيد بن معاوية أن عبد الله بن عباس قد امتنع على ابن الزبير، فسرّه ذلك، وكتب إلى ابن عباس) ثم يذكر مضمون الرسالة و ردّ ابن عباس عليه فكان مما قال: (.. فلست حمدك أردت، ولا ودك، ولكن الله بالذي أنوي عليم. وزعمت انك لست بناس ودي فلعمري ما تؤتينا مما في يديك من حقنا إلا القليل، وإنك لتحبس عنا منه العريض الطويل...) ^(٢٠).

وفي المقابل فقد ميّز معاوية وابنه يزيد من بعده أهل الشام على من سواهم في العطاء، وقد جاء في كتاب (نهاية الأرب في فنون العرب) حول أحداث ثورة عبدالله بن الزبير على يزيد: (وكان مالك بن هبيرة السكوني يهوى خالد بن يزيد، والحسين

ابن نمير يميل إلى مروان، فقال مالك للحصين: هلم نباع هذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن أختنا، وقد عرفت منزلتنا من أبيه، فإنه يحملنا على رقاب العرب. يعني خالد بن يزيد^(٢١). وسلك الأمويون سلوكاً آخر في إطار الفساد المالي، ففرضوا ضرائب جديدة لتغطية احتياجاتهم المالية التي تخدم سياساتهم وتثريهم، ومن بينها (ضريبة النيروز)، وقد كتب د. هيرش محمد أمين في كتابه (نوروز في الشعر العباسي): (يزيد ابن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ) الذي أعاد ضريبة النيروز وكتب إلى واليه في العراق عمر بن هبيرة سنة ١٠٥هـ يأمره بمسح أرض السواد وإعادة ضريبة النيروز).

ثم أضاف المؤلف في ضمن حديثه عن البحتري الشاعر أنه أنشد في ذلك قائلاً:

تتوخى الهدى وتحكم بالحر ق وترجو تجارة لا تبور
 إن النيروز عاد إلى العهد — الذي سنه أردشير
 أنت حولته إلى الحالة الأولى حى وقد كان حائراً يستدير
 وانفتحت الخراج فيه فلألم —ة في ذاك مرفق مذكور
 وقال: (فالمقطع يستند إلى لغة تهكمية ساخرة، تدور على

إبراز ظاهرة سلبية أعاد الممدوح العمل بها بعد أن كانت من سنن الطواغيت. فالعمل على دفع ضريبة النيروز في نظر الشاعر انقلاب إلى حافة الهاوية، لا يأمر بها من يطلب تجارة لا تبور. فلئن كانت الأكاسرة أحرص الناس عليها كأردشير مثلاً فإنها عادت إلى سابق عهدها، حتى أن خزائن الخليفة اليوم منتفخة بأموال تلك الضريبة^(٢٢).

كانت هذه بعض صور ونماذج الفساد المالي الذي شهده العهد الأموي، وكان من أسباب الثورة الحسينية، وفي فصول لاحقة سأعرض بشئ من التفصيل لصور من الفساد المالي والإداري منذ بدايات العهد الأموي، وأكتفي هنا بما سبق تجنباً للتكرار.



المصادر والتعليقات الختامية:

- (١) الأعراف: ٨٥-٨٦ .
- (٢) هود: ٨٤-٨٦ .
- (٣) الشعراء: ١٧٦-١٨٤ .
- (٤) العنكبوت: ٣٦ .
- (٥) سبأ: ١٥-١٧ .
- (٦) سبأ ١٨-١٩ .
- (٧) قريش: ١-٤ .
- (٨) النحل: ١١٢ .
- (٩) نهج البلاغة: خ ١٧٦ .
- (١٠) ن.م. خ ٢٢٣ .
- (١١) www.fikercenter.com
- (١٢) الأميني: أبوذر - ص ٤٠ .
- (١٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك - ج ٣ - ص ٣٦٥ .
- (١٤) المسعودي: مروج الذهب - ج ٢ - ص ٧٩ .
- (١٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي - ج ٢ - ص ٢٣٢-٢٣٣ .
- (١٦) ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة - ج ١ - ص ٢١٤ .
- (١٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ - ج ٢ - ص ١٢٩ .
- (١٨) ابن قتيبة الدينوري: الإمامة والسياسة - ج ١ - ص ١٧٦ .
- (١٩) القرشي: حياة الإمام الحسين - ج ٢ - ص ١٢٤ .
- (٢٠) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي - ج ٢ - ص ٢٤٧-٢٤٨ .
- (٢١) النويري: نهاية الأرب في فنون العرب - ج ٥/- ص ٤٩٨ .
- (٢٢) نقلاً عن موقع: www.alitthad.com .

نقض العهود والمواثيق

❁ نقض العهود والمواثيق والعقود: بنو إسرائيل نموذجاً:
 العقود والعهود والمواثيق ظاهرة اجتماعية ملازمة للإنسان،
 لا يضطراره إليها في تدبير معاشه وأمنه وعلاقاته. وقد أعطى
 القرآن الكريم للعهود والعقود أهمية كبرى، وأكد على ضرورة
 إنفاذها، والإيفاء بها وتحمل أثارها وتبعاتها، وقد قال ﷺ: ﴿وَمَنْ
 أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ

بدينارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بَأْنَهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ، بَلَى مَنْ أَوْفَى بَعْدَهُ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ، إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَأَيْمَانَهُمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾.

❖ صورة ممقوتة:

هذه الصورة القبيحة لليهود والمصير البائس والعذاب الأليم إنما ارتبطت بسلوكهم المذموم في جانب الوفاء والأمانة والقائم على التمييز العنصري والديني في قضية لم يميز فيها التشريع النازل عليهم بين قوم وقوم، أو بين أتباع دين ودين، فالأمانة والوفاء بالعهد والعقد لا علاقة له بذلك.

ولذا في الخبر عن الحسين الشيباني عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (قُلْتُ لَهُ: رَجُلٌ مِنْ مَوَالِيكَ يَسْتَحِلُّ مَالَ بَنِي أُمِّيَّةٍ وَدِمَاءَهُمْ، وَإِنَّهُ وَقَعَ لَهُمْ عِنْدَهُ وَدِيعَةٌ، فَقَالَ: أَدُّوا الْأَمَانَةَ إِلَى أَهْلِهَا، وَإِنْ كَانُوا مَجْجُوسًا). وعن الحسين بن مصعب الهمداني قال: (سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: ثَلَاثٌ لَا عُذْرَ لِأَحَدٍ فِيهَا: أَدَاءُ الْأَمَانَةِ إِلَى

البر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبرُّ الوالدين برِّين كانا أو فاجرَيْن). وعن عمار بن مروان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في وصيته له: (اعلم أنَّ ضاربَ عليٍّ بالسيف وقتله لو ائتممني واستنصحتني واستشارني ثم قبلت ذلك منه لأديت إليه الأمانة). وعن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال لشيعته: (عليكم بأداء الأمانة، فوالذي بعث محمداً بالحق نبياً، لو أن قاتل أبي الحسين بن علي بن أبي طالب ائتممني على السيف الذي قُتل به، لأديته إليه)^(٢).

❁ النبي الأمين:

وقد كان نبينا الأكرم عليه السلام الأمين مع قريش وهم مشركون، وأمر علياً عليه السلام أن ينادي جهاراً في مكة بعد هجرته عليه السلام لإعادة الأمانات إلى أصحابها.. وهم لا شك مشركون.

وفي كتاب (الأمالى) للشيخ الطوسي حول هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة حديث يتناول تفاصيل ما جرى بعد أن هجم المشركون المتربصون بالدار على علي عليه السلام وهم يظنون أنه النبي عليه السلام، قال: (وأمهل علي صلوات الله عليه حتى إذا أعتم من الليلة القابلة انطلق هو وهند بن أبي هالة حتى دخلا على رسول الله عليه السلام في الغار، فأمر رسول الله عليه السلام هنداً أن يبتاع له

ولصاحبه بعيرين، فقال أبو بكر: قد كنت أعددتُ لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب. فقال: إني لا آخذهما ولا أحدهما إلا بالثمن. قال: فهي لك بذلك، فأمر ﷺ علياً عليه السلام فأقبضه الثمن، ثم أوصاه بحفظ ذمته وأداء أمانته. وكانت قريش تدعو محمداً ﷺ في الجاهلية الأمين، وكانت تستودعه وتستحفظه أموالها وأمتعتها، وكذلك من يقدم مكة من العرب في الموسم، وجاءته النبوة والرسالة والأمر كذلك، فأمر علياً عليه السلام أن يقيم صارخاً يهتف بالأبطح غدوةً وعشياً: ألا من كان له قبل محمد أمانة أو وديعة، فليأت فلتؤد إليه أمانته. وقال النبي ﷺ: إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدم علي، فادّأمانتي على أعين الناس ظاهراً^(٣).

❁ تبعات صلح الحديبية:

وفي صلح الحديبية شُرط على النبي ﷺ أنه: (لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا)^(٤). والتزم النبي ﷺ بذلك الشرط ضمن الميثاق على الرغم من مضمونه المؤلم، ويذكر البخاري في صحيحه بعض ما جرى بعد ذلك في هذا الإطار: (... فَجَاءَهُ أَبُو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَهُوَ مُسْلِمٌ «قِيلَ

اسمه عتبة بن أسيد الثقفي» فَأَرْسَلُوا فِي طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقَالُوا:
 الْعَهْدُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فَدَفَعَهُ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا بِهِ حَتَّى بَلَّغَا
 ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِنْ تَمَرٍ لَهُمْ، فَقَالَ أَبُو بَصِيرٍ لِأَحَدِ
 الرَّجُلَيْنِ: وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَرَى سَيْفَكَ هَذَا يَا فُلَانُ جَيْدًا فَاسْتَلَّهُ الْآخَرُ
 فَقَالَ: أَجَلٌ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَجَيْدٌ، لَقَدْ جَرَّبْتُ بِهِ ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقَالَ أَبُو
 بَصِيرٍ: أَرِنِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ فَأَمْكَنَهُ مِنْهُ، فَضَرَبَهُ حَتَّى بَرَدَ وَفَرَ الْآخَرُ
 حَتَّى أَتَى الْمَدِينَةَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ يَعْذُو، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
 حِينَ رَأَاهُ: لَقَدْ رَأَى هَذَا ذُعْرًا، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:
 قُتِلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ
 اللَّهِ، قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ
 مِنْهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَيْلُ أُمِّهِ «كَلِمَةٌ تَعْجَبُ يَصِفُهُ بِالْإِقْدَامِ»
 مُسَعَّرَ حَرْبٍ «أَيُّ مَوْقِدِ حَرْبٍ» لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ
 عَرَفَ أَنَّهُ سَيُرَدُّهُ إِلَيْهِمْ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى سَيْفَ الْبَحْرِ، قَالَ:
 وَيَنْفَلْتُ مِنْهُمْ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سُهَيْلٍ فَلَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ
 لَا يَخْرُجُ مِنْ قُرَيْشٍ رَجُلٌ قَدْ أَسْلَمَ إِلَّا لَحِقَ بِأَبِي بَصِيرٍ حَتَّى
 اجْتَمَعَتْ مِنْهُمْ عَصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ مَا يَسْمَعُونَ بَعِيرَ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ
 إِلَى الشَّأْمِ إِلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، فَأَرْسَلَتْ

قُرِشُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَنَاشَدُهُ بِاللَّهِ وَالرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ ، فَمَنْ أَتَاهُ فَهُوَ آمِنٌ فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ حَتَّى بَلَغَ الْحِمِيَّةَ حِمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ (...)^(٥).

❖ ميثاق مع الله:

ومن المهم أن نلاحظ أن الآية التي ذمت اليهود على سلوكهم وافترائهم قد اعتبرت أن الميثاق الذي يعقدونه مع الآخرين ولو من ملل أخرى هو ميثاق وعهد مع الله في المقام الأول، كما أكدت على أن الوفاء بالعهود والالتزام بالتقوى هما اللذان يُمكن لهما أن يحققا دوام المصلحة الإنسانية واستمراريتها، ومن خلالهما يحصل الإنسان على محبة الله.

وهكذا فإن من الضروري إذا دخل المسلمون في معاهدة مع الآخرين، أن يشعر الآخرون بالأمن في علاقاتهم بالمسلمين، ويضمنوا لأنفسهم الثبات في المواقع التي تثبتتها هذه المعاهدة.

❖ أقسام العهود:

في القرآن حديث عن العهود والعقود على أقسام:

١- بين الإنسان وربه، كما في قوله ﷺ: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا

الْأَلْبَابِ، الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٦﴾ .

٢- بين الأفراد لشؤون شخصية، كما في قوله ﷺ: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ ^(٧) .

٣- بين أمم ومجتمعات، كما جاء في قوله ﷺ: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.... إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ ^(٨) .

٤- بين أفراد الأمة كقانون وعرف وعقد اجتماعي يلتزم الجميع به، كما في قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِبَعْضِهِمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ ^(٩) . فهناك عهد داخلي نشأ بين المؤمنين بعضهم

البعض تحت عنوان الولاية، وتترتب عليها استحقاقات إلا إذا

كان بين المؤمنين وبين قوم ما ميثاق متعارض، فحينذاك لا يعمل بذلك الاستحقاق التزاماً بالميثاق مع المشركين!

وقد ضرب القرآن الكريم نموذجاً لنقض الميثاق بين أتباع الملة الواحدة، وذلك ضمن ذمه لممارسات بني إسرائيل، فقال ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجَهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ، أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (١٠).

وقتل النفس هنا لا بمعنى الانتحار بل بمعنى قتل بعضهم البعض، فالقرآن يعتبر أبناء الأمة الواحدة بمثابة النفس لبعضهم البعض، تماماً كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا

أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١﴾. قال العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان):
(إنما يعني به قتل البعض و هم الذين عبدوا العجل) (١٢).

وفي القرآن الكريم حديث عن ميثاق مشابه يخص أتباع الشريعة المحمدية، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (١٣).

قال العلامة الطباطبائي في تفسيره (الميزان): (ظاهر الجملة أنها نهى عن قتل الإنسان نفسه لكن مقارنتها قوله: لا تأكلوا أموالكم بينكم، حيث إن ظاهره أخذ مجموع المؤمنين كنفس واحدة لها مال يجب أن تأكلها من غير طريق الباطل ربما أشعرت أو دلت على أن المراد بالأنفس جميع نفوس المجتمع الديني المأخوذة كنفس واحدة نفس كل بعض هي نفس الآخر فيكون في مثل هذا المجتمع نفس الإنسان نفسه و نفس غيره أيضا نفسه فلو قتل نفسه أو غيره فقد قتل نفسه، و بهذه العناية

تكون الجملة أعني قوله: و لا تقتلوا أنفسكم مطلقة تشمل الانتحار - الذي هو قتل الإنسان نفسه - و قتل الإنسان غيره من المؤمنين^(١٤).

❁ واقع بئس:

ولك أن تنظر الى واقع الأمة الإسلامية اليوم فيما يمارسه الحكام ضد شعوبهم، بطرد وتهجير من يخالفهم من ديارهم، أو دفعهم للخروج والهجرة إلى ديار غير المسلمين كلاجئين لسبب أو لآخر، وتبعات ذلك النفسية والدينية والثقافية وخسارة المجتمع لعقول أبنائها. وبالإضافة إلى الطرد نجد المطاردة والقتل وأحكام الإعدام للمعارضين وغير ذلك من ممارسات تدخل ضمن تلك الصورة المقدمة في القرآن.

وهكذا تمارس ذات الدور الجماعات التكفيرية والإقصائية من غير الأحزاب ذات العنوان الإسلامي، بل وأبشع منه فيما يشهده عالمنا الإسلامي الملىء بالمآسي والجرائم البشعة، وفي ظل إمداد غربي لبعض الأطراف أو مساندتها بنحو من المساندة، مادام الأمر يصب في صالحها وصالح الكيان الصهيوني، مهما بلغت بشاعة تلك الجرائم!

✽ علاقة نقض العهود بالفساد:

وقد ارتبط الحديث حول نقض المواثيق والعهود والعقود بالفساد، ولعلها إشارة إلى حالة تضمينية «بمعنى أن نقضها فساد في حد ذاته» أو التزامية بينهما «بمعنى أن نقضها يؤدي إلى الفساد في المجتمع»، قال ﷺ: ﴿..... وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ، الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(١٥).

وقال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾^(١٦).

ومعنى الفساد الذي أشرنا إليه في أكثر من موقع هو حالة الخراب والتفكك وضعف الارتباط التي تسود المجتمع، والتجاوز على حقوق الآخرين، والصراع الداخلي والخارجي، ومن الواضح أن نقض العهود والمواثيق والعقود تمثل أسباباً واضحة لذلك، سواء كان هذا النقض مع الله أو مع الأمة أو بين الأمم أو بين الأفراد.

❁ السلوك الأموي:

وإذا أردنا أن ندرس سيرة الأمويين من هذه الناحية فإننا سنجد حالة الغدر بالمواثيق والعهود وكلمة الشرف ظاهرة بيّنة، وقد عبّر عنها أمير المؤمنين عليه السلام كما في نهج البلاغة في كلام له: (وَاللّٰهُ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَذْهَىٰ مِنِّي، وَلَكِنَّهُ يُغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْغُدْرِ لَكُنْتُ مَنْ أَذْهَىٰ النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فَجْرَةٌ، وَكُلُّ فَجْرَةٍ كَفْرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَّوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَاللّٰهُ مَا اسْتَغْفَلُ بِالْمَكِيدَةِ، وَلَا اسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ)^(١٧).

وعلق ابن أبي الحديد على هذه الكلمة فكان مما قاله: (الفجرة والكفرة: الكثير الفجور والكفر... ثم أقسم عليه السلام أنه لا يستغفل بالمكيدة، أي لا تجوز المكيدة علي، كما تجوز على ذوي الغفلة، وأنه لا يستغمز بالشديدة، أي لا أهين وألين للخطب الشديد... فأما القول في سياسة معاوية، وأن شنأت علي عليه السلام وبمغضيه زعموا أنها خير من سياسة أمير المؤمنين، فيكفيها في الكلام على ذلك ما قاله شيخنا أبو عثمان «الجاحظ» ونحن نحكيه بالفاظه. قال أبو عثمان: وربما رأيت بعض من يظن بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز، وهو

من العامة ويظن أنه من الخاصة، يزعم أن معاوية كان أبعد غوراً، وأصح فكراً، وأجود رويةً، وأبعد غايةً، وأدق مسلكاً، وليس الأمر كذلك، وسأرمي إليك بجملة تعرف بها موضع غلظه، والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله. كان علي عليه السلام لا يستعمل في حربه إلا ما وافق الكتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنة، كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميع المكاييد، حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وخاقان إذا لاقى رتبيل «أي حاكم الترك» وعلي عليه السلام يقول: لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدؤوكم، ولا تتبعوا مدبراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تفتحوا باباً مغلقاً، هذه سيرته في ذي الكلاع، وفي أبي الأعور السلمي، وفي عمرو بن العاص، وحبيب بن مسلمة، وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشية والحشو والأتباع والسفلة وأصحاب الحروب، إن قدروا على البيات بيّتوا، وإن قدروا على رضخ الجميع بالجنادل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه إلى ساعة، وإن كان الحرق أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخروا الحرق إلى وقت الغرق، وإن أمكن الهدم لم يتكلفوا

الحصار، ولم يدعوا أن نصبوا المجانيق، والعرادات «جمع عرادة آلة عسكرية كالمنجنيق ولكنها أصغر حجماً» والنقب، والتسريب، والدبابات، والكمين، ولم يدعوا دس السموم، ولا التضريب بين الناس بالكذب وطرح الكتب في عساكرهم بالسعايات، وتوهم الأمور، وإيحاش بعض من بعض، وقتلهم بكل آله وحيلة، كيف وقع القتل، وكيف دارت بهم الحال! فمن اقتصر - حفظك الله - من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير، وما لا يتناهى من المكاييد والكذب - حفظك الله - أكثر من الصدق، والحرام أكثر عدداً من الحلال... فعلي عليه السلام كان ملجماً بالورع عن جميع القول إلا ما هو لله عز وجل رضا، وممنوع اليدين من كل بطش إلا ما هو لله رضا، ولا يرى الرضا إلا فيما يرضاه الله ويحبه، ولا يرى الرضا إلا فيما دل عليه الكتاب والسنة، دون ما يعول عليه أصحاب الدهاء والنكراء والمكاييد والآراء، فلما أبصرت العوام كثرة نوادر معاوية في المكاييد، وكثرة غرائبه في الخداع، وما اتفق له وتهياً على يده، ولم يرو ذلك من علي عليه السلام، ظنوا بقصر عقولهم، وقلة علومهم، أن ذلك من

رجحان عند معاوية ونقصان عند علي عليه السلام، فانظر بعد هذا كله، هل يعد له من الخدع إلا رفع المصاحف؟! ثم انظر هل خدع بها إلا من عصى رأى علي عليه السلام وخالف أمره؟!... ولا يقول أحد عنده شيء من الخير: كان رسول الله صلى الله عليه وآله أدهى العرب والعجم وأنكر قريش وأمكر كنانة، لأن هذه الكلمة إنما وضعت في مديح أصحاب الإرب ومن يتعمق في الرأي في تأكيد أمر الدنيا وزبرجها وتشديد أركانها، فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر، وإنما يصلحون على تدبير خالق البشر، فإن هؤلاء لا يمدحون بالدهاء والنكراء، ولم يمنعوا هذا إلا ليعطوا أفضل منه^(١٨).

وقال الشيخ باقر شريف القرشي في (حياة الإمام الحسين): (إن الأمويين قد عُرِفوا بالغدر ونقض العهود، فقد صالح الحسن معاوية، وسلم إليه الخلافة ومع ذلك فقد غدر معاوية به فدس إليه سماً فقتله، وأعطوا الأمان لمسلم بن عقيل فخانوا به.. وقد ذكرنا في البحوث السابقة مجموعة من الشخصيات التي اغتالها معاوية خشية منهم)^(١٩).

وللدكتور نوري جعفر كتاب تحت عنوان (الصراع بين

الأمويين ومبادئ الإسلام)، وقدّم له الدكتور حامد حفني داود أستاذ الأدب العربي بكلية الألسن بالقاهرة قائلاً: (في هذا الكتاب يقدم لنا المؤلف الدكتور نوري جعفر عن عقيدة أخلصها وصفها لمبادئ الإسلام العديد من مساوئ بني أمية التي كانت ثلّة لا ترأب في صرح الإسلام المجيد، وهي لا تزال إلى اليوم وصمة في تاريخهم منذ أمسكوا بزمام الحكم حتى سقطت دولتهم على يد العباسيين سنة ١٣٢ هـ. وقيمة هذا الكتاب تتجلى في أن مؤلفه أضاف شيئاً جديداً على الكاتبين، هذا الموضوع، ذلك أنه وثّق كل ما جاء من مواقف بني أمية ضد مبادئ الإسلام السمحاء بالعديد من الروايات الموثقة في المصادر والمراجع. كما أتحف هوامش الكتاب بالكثير من تراجم الأعلام الذين ورد ذكرهم في ثنايا كتابه. لقد كتب أبو عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ - شيخ كتاب القرن الثالث الهجري - كما كتب غيره الكثير عن أخبار بني أمية وعن مساوئهم ومناوئهم للبيت الهاشمي... تناول المؤلف في هذا الكتاب العديد من القضايا التي خرج فيها بنو أمية عن المثالية الإسلامية التي وضع الرسول أساسها وسار عليها

الخلفاء الراشدون كل بقدر إجهاده حتى بلغت في خلافة علي القمة التي لا يعلوها قمة من أخلاقيات الإسلام ومبادئه وقيمه. لولا أن هذا النهج المثالي الذي شرعه علي وبرأ فيه نفسه عن ادعاء الكمال حينما أسندت إليه الخلافة سرعان ما هوجم من معسكر البغي والعدوان من بني أمية وأعوانهم. ولقد حاول المؤلف أن يفصح عن موقف الأمويين ضد مبادئ الإسلام، فأفاد في الكثير مما كتب. وحق له أن يتحدث عن مساوئهم وعما عرفوا به من خيانة، وغدر بالقيم، واقتراف للكثير من الجرائم الأخلاقية كالزنا ومعاقرة الخمر وإرتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن فضلاً عن الاحتيال في الدين ونقض للعهود وكذب على الله وآل بيت نبيه، واستحلالهم للعن الإمام علي الذي فيه يقول الرسول: «من سب علياً فقد سبني ومن سبني فقد سب الله تعالى». استعرض المؤلف كل هذه الثغرات الأخلاقية التي تدين بني أمية وتضعهم في موضع غير كريم من تاريخ الإسلام^(٢٠).

أما المؤلف ذاته فقد كتب تحت عنوان الغدر: (لقد برزت ظاهرة الغدر في الأسرة الأموية بين النساء والرجال على

السواء ضد بعضهم بعضاً أحياناً، وضد غير الأمويين أحياناً حسبما تستلزم الظروف السياسية القائمة.. صفة الغدر كانت متفشية بين الأمويين من النساء والرجال على السواء وبقدر ما يتعلق الأمر بالغدر عند النساء الأمويات يمكننا أن نقول لقد غدرت أم خالد - ابنة أبي هشام - أرملة يزيد بن معاوية بزوجها مروان بن الحكم فخنقته بالوسادة حتى قتلته! وتفصيل ذلك على ما رواه الطبري إن معاوية بن يزيد عندما حضرته الوفاة أبى أن يستخلف أحداً... ويذكر القصة ثم يضيف: (أما الغدر عند رجال بني أمية فهو أبين منه عند نسائهم، وذلك لطبيعة الأوضاع العامة التي تميز بين الجنسين. ويتجلى الغدر - بين الأمويين - بأوضح أشكاله عند معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك. ويلوح لي أن الغدر كان صفة ملازمة للحكام الأمويين.. وبقدر ما يتعلق الأمر بالحكام الأمويين الذين ذكرنا أسماءهم فإن قصص الغدر عند معاوية مشهورة في كتب التاريخ.. وغدره بالحسن بن علي وبعبد الرحمن بن خالد بن الوليد أشهر من أن يذكر. وأما غدر عبد الملك بن مروان فيتجلى بأبشع أشكاله في موقفه من

عمرو بن سعيد الأشدق، وقد حصل ذلك في عام ٧٠ عندما كان عبد الملك منشغلاً في المسير من دمشق نحو العراق للقاء مصعب بن الزبير، وكان مروان بن الحكم قد وعد عمرو ابن سعيد بأن يتولى الأمر من بعده فكسب مساعدته وتأييده.. غير أن مروان بن الحكم - على عادته الأموية - نكث عهده للأشدق وأوصى بالخلافة لابنه عبد الملك! ويحكي الكاتب قصة استدعائه لعمرو ومنع من معه من الدخول: (فرحب به عبد الملك وقال: ههنا يا أبا أمية يرحمك الله. فأجلسه معه على السرير. وجعل يحدثه طويلاً ثم قال: يا غلام خذ السيف عنه. فقال عمرو: أنا لله يا أمير المؤمنين. فقال عبد الملك: أو تطمع أن تجلس معي متقلداً سيفك؟! فأخذ السيف عنه. ثم تحدثا. فأخرج عبد الملك من تحت فراشه جامعة فطرحها أمامه، ثم قال: يا غلام، قم فاجمعه فيها. فقام الغلام فجمعه فيها. فقال عمرو: أذكرك الله يا أمير المؤمنين أن تخرجني فيها على رؤوس الناس. فقال عبد الملك: أمكراً يا ابن أمية عند الموت؟! ثم اجتذبه اجتذابة أصاب فمه فكسر ثنيته، فقال عمرو: أغدراً يا أبا الزرقاء؟! وأذن مؤذن العصر فخرج عبد الملك ليصلي

بالناس، وأمر عبد العزيز بن مروان أن يقتل عمراً.. وصلى عبد الملك.. ورجع فوجد عمراً حياً. فقال - لعبد العزيز - ما منعك من أن تقتله؟ قال: إنه ناشدني الله والرحم فرفقت به. فقال له عبد الملك: أخزى الله أمك البوالة على عقبها.. ثم إن عبد الملك قال: يا غلام أئتني بالحربة. فأتاه بها فهزها ثم طعنه بها. وجلس على صدره فذبحه. انتفض عبد الملك رعدة، فحمل عبد الملك عن صدره ووضع على سريره. وجاء عبد الرحمن ابن أم حكيم الثقفي فرفع إليه الرأس فألقاه في الناس. وقام عبد العزيز بن مروان فأخذ الأموال في البدور فجعل يلقيها إلى الناس. فلما نظر الناس إلى الأموال ورأوا الرأس انتهبوا الأموال وتفرقوا^(٢١).

وتحكي مصادر التاريخ أن الأمويين عندما عقدوا (مؤتمر الجابية) لمبايعة مروان بن الحكم قد اتفقوا على أن يخلفه: خالد بن يزيد بن معاوية ثم سعيد بن العاص من بعده، غير أن مروان بن الحكم نقض ذلك العهد وعهد بالخلافة لابنه عبد الملك ومن بعده ابنه عبد العزيز.

والناس على دين ملوكهم! ولذا فإن أغلب أبناء ذلك المجتمع

لم يتأثموا من نقض العهود والمواثيق، فقد بات عدم الوفاء بها أمراً عادياً ومتسالمًا عليه على الرغم من أنهم يتلون الكتاب الكريم ليل نهار!

❁ الإمام الحسين يواجه الردة الحضارية:

ومن هنا واجه الحسين عليه السلام حالة من الردة الحضارية عند القوم الذين طلبوا منه القدوم إلى الكوفة لينصروه وبائعوه على ذلك، ثم خذلوه، فقد زرع الإسلام فيهم القيم الرفيعة، حتى إذا توفي النبي صلى الله عليه وآله وطال عليهم الأمد تخلوا عنها: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ ^(٢٢) وقد حذرهم القرآن من ذلك: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ^(٢٣).

روى الطبري عن أبي مخنف: (عن عقبة بن أبي العيزار إن الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال من رأى

سلطاناً جائراً مستحلاً لحُرْمِ الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفئ وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيري، وقد أتتني كتبكم وقدمت علي رسلكم ببيعتكم أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تمتمت على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، فلکم في أسوة، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته^(٢٤).

يقول الشيخ محمد مهدي الآصفي في كتابه (وارث الأنبياء):
(والتفسير الوحيد الذي يستطيع أن يفسر لنا سر هذه الانتكاسة والمسخر الحضاري في شخصية الأمة، أو طائفة كبيرة من الأمة

على أقل التقادير، يكمن في الجهد البالغ الذي بذله بنو أمية في إرهاب الناس وإفسادهم لغرض سيطرتهم على المسلمين ومسح معالم شخصيتهم، حتى عادت ضمائرهم وإدراكاتهم في قبضة بني أمية، يتحكمون فيها بالطريقة التي تعجبهم، وتخدم أهدافهم. وكان لابد من هزة قوية عنيفة لضمير الأمة تعيد إليها وعيها وإرادتها وقيمها وتشعرها بعمق الكارثة التي حلت بها، وتبعث الندم في نفوسهم، وحتى لو لم تكن هذه الهزة تنفع هذا الجيل فقد كانت تعتبر ضرورة من ضرورات المرحلة لإنقاذ الجيل الذي يأتي من بعد هذا الجيل، لئلا يسري إليه هذا الانحطاط الحضاري الذي لزم هذا الجيل، وكانت تضحية الحسين عليه السلام وتحركه المأساوي يكون في وجدان الأمة هذه الهزة العميقة التي كانت تتطلبها ضرورات الساحة والحالة الاجتماعية. لقد نبهت شهادة الحسين وأهل بيته وأصحابه بالطريقة المفجعة التي تمت بها ضمائر المسلمين وأشعرتهم بالندم ومكنتهم من أن يستعيدوا وعيهم وإرادتهم من جديد، ففكروا وبقرروا مصيرهم بأنفسهم^(٢٥).

المصادر والتعليقات الختامية:

- (١) آل عمران: ٧٥-٧٧ .
- (٢) المجلسي: بحار الأنوار - ج ٧٢ - باب أداء الأمانة .
- (٣) الطوسي: الأمالي - ص ١٧٦ .
- (٤) العيني: عمدة القاري - ج ١٣ - ص ٢٧٧ .
- (٥) البخاري: الجامع الصحيح - ح ٢٥٤٢ .
- (٦) الرعد: ١٩-٢٠ .
- (٧) الإسراء: ٣٤ .
- (٨) التوبة: ١-٤ .
- (٩) الأنفال: ٧٢-٧٣ .
- (١٠) البقرة: ٨٤-٨٦ .
- (١١) البقرة: ٥٤ .
- (١٢) الميزان: في تفسير الآيات السابقة .
- (١٣) النساء: ٢٩-٣٠ .
- (١٤) الميزان: في تفسير الآيات السابقة .
- (١٥) البقرة: ٢٦-٢٧ .
- (١٦) الرعد: ٢٥ .
- (١٧) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ج ١٠ - ص ٢١١ .
- (١٨) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ج ١٠ - ص ٢٢٧-٢٣٠ .
- (١٩) القرشي: حياة الامام الحسين - ص ٢٩٢ .
- (٢٠) حامد حفني داود: نظرات في الكتب الخالدة - ص ١٥٥ .
- (٢١) نوري جعفر: الصراع بين الامويين ومبادئ الإسلام - ص ١٥٢-١٥٧ .
- (٢٢) آل عمران: ١٤ .
- (٢٣) الحديد: ١٦ .
- (٢٤) الطبري: تاريخ الأمم والملوك - ج ٤ - ص ٣٠٤-٣٠٥ .
- (٢٥) الأصفى: وارث الأنبياء ص ٢١٨-٢١٩ .

الفساد الفكري

❁ خامساً - الفساد الفكري: قريش نموذجاً:

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ

عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ، وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ
أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ .

تؤكد الآية هنا على أن إنكار دين الله بإنكار القرآن ورسالة النبي محمد ﷺ هو من صور الفساد، فالفساد قد يعتري المفاهيم والأفكار، لتتحول إلى شبهات أو عقائد باطلة في الأذهان، كما قد تتحول إلى ممارسات تلحق الضرر البالغ بالبشرية وما يحيط بها. فالشوفينية «التطرف في حب الوطن إلى درجة استعداد الآخرين ومحاربتهم» وأمثالها من الصهيونية والنازية والفاشية والبعثية والشيوعية والرأسمالية والتكفيرية.. كلها متبنيات لا تقف عند حد الفساد المفاهيمي، بل تتجاوز ذلك لتتحول إلى مجازر وجرائم وحروب وانتهاك حرمت وبمبررات! ولو أردنا أن نحصي الضحايا البشرية لهذه التبعات خلال القرن الماضي وبدايات هذا القرن لكان الرقم مهولاً! هذا فضلاً عن الدمار البيئي والتبعات الاقتصادية والاجتماعية والنفسية وغيرها.

✽ فساد فرعون:

ومن هنا عندما تحدث القرآن عن كون فرعون من المفسدين:
﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا

وَعَدُوا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَلَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢﴾ فَإِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَقِفُ عِنْدَ حَدِّ الْفَسَادِ الْعَقِيدِيِّ الْمَتَمَثِّلِ بِالشِّرْكِ، وَرَفُضِ نُبُوَّةِ مُوسَى ﷺ، بَلْ وَادْعَاءِ الْإِلَهِيَّةِ لِنَفْسِهِ: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ ﴿٣﴾، بَلْ يَتَجَاوَزُهُ لِيَشْمَلَ انْعِكَاسَاتِ ذَلِكَ الْاِسْتِكْبَارِ الْفِكْرِيِّ عَمَلِيًّا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٤﴾، ثُمَّ كَرْدَةُ فِعْلٍ ضِدَّ دَعْوَةِ النَّبِيِّ مُوسَى ﷺ: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿٥﴾.

والمفارقة أن فرعون في مواجهة هذه الدعوة كان يوجه النقد لموسى ﷺ ويتهمه بالإفساد: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾ ﴿٦﴾، وبنفس المنطق تحدث من حوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ ﴿٧﴾.

وهذا ديدن الظالمين والمستكبرين وأصحاب المصالح في دغدغة شعور الناس وتخويفهم من تبعات الإيمان بدعوة المصلحين: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لْتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾^(٨) ومحاولة قلب الطاولة على المصلحين: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾^(٩).

وهذا ما نجده في مشهد آخر بعيداً عن الصراع بين موسى وفرعون، ففي قصة المرسلين الثلاثة إلى أنطاكية: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾^(١٠) بمعنى أننا نرى فيكم شؤماً على مجتمعنا من خلال دعوتكم هذه التي تدعون أنها دعوة إصلاح وهي في الواقع دعوة إفساد، لأنكم ستفرقون بين المرء وزوجه، وبين الأب وابنه، ولأنكم ستقسمون المجتمع وسينعكس هذا على الوضع الآمن والمستقر الذي نعيشه على المستوى الاقتصادي والسياسي والاجتماعي.

✽ الفساد في الدائرة الإيمانية:

وعلى كل حال فإن مثل هذا الفساد الفكري المنعكس سلوكياً لا يخص الكافرين، بل يشمل المؤمنين، فقد وقع قوم

النبي موسى في ذلك من قبل واعتبره القرآن إفساداً: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْنٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(١١). وتحقق ما حذر منه موسى ﷺ حين صنعوا العجل وعبدوه.

✽ الأمويون والإفساد الفكري:

ووقع المسلمون في وضع مشابه، وتطابقاً مع قول النبي ﷺ: (لَتَتَّبِعَنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ. قلنا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟)^(١٢).

فقد انطلق الأمويون بكل قوة في طريق إفساد المجتمع الإسلامي فكرياً، فقد حاربوا الإسلام من قبل على عهد رسول الله ﷺ وأرادوا القضاء عليه وعلى دولته الفتية فما استطاعوا، بل واضطروا إلى قبول الدخول في الإسلام مرغمين ضمن قوافل الطلقاء، ثم بدءوا بمحاربة النبي من داخل المجتمع الإسلامي حال حياته، ففي مسند الإمام أحمد: (كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ فَهَثَنِي قُرَيْشُ «وَقَرِيشُ هُنَا

تعبير عن هذا الاتجاه الأموي الذي كان يترأس الحرب ضد النبي ﷺ قبل فتح مكة ثم أصبح يحاربه من الداخل» فقالوا إِنَّكَ تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا. فَأَمَسَكَتُ عَنِ الْكِتَابِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: اكْتُبْ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا حَقٌّ^(١٣).

أما بعد وفاته ﷺ فقد عملوا على إفساد المسلمين فكرياً، لاسيما مع استقواء معاوية في الشام، وذلك بوسائل عديدة من بينها:

١- وضع الحديث: لتغيير العقائد ابتداء بالتوحيد والمعاد والنبوة، ومروراً بالمفاهيم والقيم الإسلامية واختلاق المناقب والفضائل للخط الذي تتبناه السلطة الأموية، واختلاق المثالب للخط الذي تعاديه السلطة، وهكذا امتد الوضع إلى كل القضايا والشؤون والسياسة والفكر والأشخاص، وأصبحت ظاهرة الوضع ظاهرة خطيرة تهدد هوية الإسلام تهديداً حقيقياً. حتى بات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خروجاً باطلاً، وعلى الجميع أن يرضى بكل الظلم الذي يمارسه الحاكمون مهما بلغ، وأقصى ما يقومون به هو أن يوجهوا إليه شيئاً من النصيحة..

لا أكثر.. هذا نموذج بسيط من توظيف الوضع والتحريف في الحديث لمصالح الأمويين.

٢- اختلاق العقائد الباطلة: التي تشوّه صورة الإسلام، وتدخل فيه الإسرائيليات والأمور الشركية وتبرر أحياناً للسلطة ممارساتها غير الشرعية. ومثال ذلك ما ذكره الدكتور حسن إبراهيم حسن (ت ١٣٨٨هـ) في (تاريخ الإسلام) حول عقيدة الإرجاء الخطيرة التي تفصل بين الإيمان والعمل معتبرة أنه لا يضر مع الإيمان عمل مهما بلغ. قال: (طائفة المرجئة التي ظهرت في دمشق حاضرة الأمويين بتأثير بعض العوامل المسيحية، خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري. وقد سميت هذه الطائفة المرجئة من الإرجاء وهو التأخير، لأنهم يرجئون الحكم على العصاة من المسلمين إلى يوم البعث. كما يتخرجون عن إدانة أي مسلم مهما كانت الذنوب التي اقترفها! وهؤلاء هم في الحقيقة كتلة المسلمين التي رضيت حكم بني أمية.. ويقول فون كريمر: ومما يؤسف له كثيراً أنه ليس لدينا غير القليل من الأخبار الصحيحة عن هذه الطائفة، فقد استمروا طوال ذلك العصر وذاقوا حلوه ومره، وقد ضاعت جميع المصادر التاريخية

العربية عن الأمويين، حتى أن أقدم المصادر التاريخية التي وصلت إلينا إنما ترجع إلى عهد العباسيين، ومن ثمَّ كان لزوماً علينا أن نستقي معلوماتنا عن المرجئة من تلك الشذرات المبعثرة في مؤلفات كتاب العرب في ذلك العصر^(١٤).

٣- الميل إلى الإلحاد: كما نجده في سيرة الخلفيتين الوليد بن يزيد ومروان بن محمد، ففي كتاب (المنتظم في تاريخ الملوك والأمم) لعبد الرحمن ابن الجوزي (ت ٥٩٧): (وكان الوليد ابن يزيد مشهوراً بالإلحاد مبارزاً بالعناد مطرَحاً للدين)^(١٥). كما أحاطت بالخلفاء الأمويين شخصيات عُرِفَت بالميل الإلحادية منهم مطيع بن إياس الشاعر الخليع، الذي تعرَّض أبو الفرج الأصفهاني لقصصه في موسوعته (الأغانى).

٤- النيل من رسول الله: والانتقاص من مكانته ومثال على ذلك ما جاء في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: (خطب الحجاج بالكوفة فذكر الذين يزورون قبر رسول الله ﷺ بالمدينة، فقال: تبا لهم! إنما يطوفون بأعواد ورمة بالية! هلا طافوا بقصر أمير المؤمنين عبد الملك؟! ألا يعلمون أن خليفة المرء خير من رسوله؟!)^(١٦).

ونجد أن جذور ذلك تعود إلى ما قبل الحجاج، ففي شرح النهج أيضاً: (روى الزبير بن بكار في الموفقيات، وهو غير متهم على معاوية، ولا منسوب إلى اعتقاد الشيعة، لما هو معلوم من حاله من مجانبة علي عليه السلام، والانحراف عنه: قال المطرف بن المغيرة بن شعبة: دخلت مع أبي علي معاوية، فكان أبي يأتيه فيتحدث معه، ثم ينصرف إلي فيذكر معاوية وعقله، ويعجب بما يرى منه، إذ جاء ذات ليلة فأمسك عن العشاء، ورأيته مغتماً فانتظرت ساعة، وظننت أنه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني، جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: وما ذاك؟ قال: قلت له وقد خلوت به. إنك قد بلغت سنأ يا أمير المؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً فإنك قد كبرت، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء يخافه، وإن ذلك مما يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات! أي ذكر أرجو بقاءه! ملك أخو تيم فعدل وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلا أن يقول قائل: أبو بكر، ثم ملك أخو عدي، فاجتهد وشمر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك

ذكره، إلا أن يقول قائل : عمر، وإن ابن أبي كبشة ليصاح به كل يوم خمس مرات: أشهد أن محمداً رسول الله، فأبي عملي يبقى وأي ذكر يدوم بعد هذا لا أبالك! لا والله إلا دفناً دفناً^(١٧). ومن الواضح أن الانتقاص من مكانة النبي تهدف فيما تهدف إليه التقليل من شأن ما جاء به وسنته وتعاليمه وهديه.

٥- محاربة خط أهل البيت: فهم حملة علم رسول الله ﷺ، وقد أوصى النبي بهم مراراً وتكراراً، ولا سيما علي عليه السلام باب مدينة علم رسول الله، وقد تفنن بنو أمية في قتلهم ومحاربتهم والتضييق عليهم وتشويه صورتهم بشتى الطرق، حتى بلغ الأمر درجة الخوف من ذكر اسم علي، أو تسمية الأبناء باسمه!

ففي (مختصر تاريخ دمشق) لابن عساكر: (وكان اسمه علياً وكان يحرّج على من سماه علياً بالتصغير... وكان يقول: لا أجعل في حل من سماني علياً فإن اسمي علي. قال أبو عبد الرحمن المقرئ: كانت بنو أمية إذا سمعوا بمولود اسمه علي قتلوه، فبلغ ذلك رباحاً فقال: هو علي^(١٨)).

وفي (المناقب) لابن المغازلي: (أخبرنا معمر عن الزهري عن عكرمة عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله

عز وجل منع بني إسرائيل قطر السماء بسوء رأيهم في أنبيائهم واختلافهم في دينهم، وإنه أخذ هذه الأمة بالسنين ومانعهم قطر السماء ببغضهم علي بن أبي طالب عليه السلام. قال معمر: حدثني الزهري وقد حدثني في مرضة مرضها ولم أسمعه يحدث عن عكرمة قبلها أحسبه ولا بعدها، فلما بل من مرضه ندم، فقال لي: يا يمانى أكتم هذا الحديث واطوه دوني، فإن هؤلاء - يعني بني أمية - لا يعذرون أحداً في تقريظ علي، وذكره، قلت: فما بالك أوعبت مع القوم يا أبا بكر وقد سمعت الذي سمعت؟ قال: حسبك يا هذا إنهم شركونا في لهاهم فانحططنا لهم في أهوائهم^(١٩). وقد تعرضنا في الليلة الثالثة لنماذج أخرى عديدة. وهكذا قاموا بقتل وإيذاء وتهجير كل من اشتبه على أنه يوالي علياً، وسيأتي ذكر بعض ذلك في بحوث لاحقة، فلا أكرر.

٦- محاولة القضاء على مراكز العلم: كالمدينة ومكة والكوفة، والتضييق عليها مالياً، والخط من شأنها، ففي شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: (وطيبة اسم المدينة، كان اسمها يثرب، فسمها رسول الله ﷺ طيبة. ومما أكفر الناس به يزيد بن معاوية أنه سماها خبيثة مراغمة لرسول الله ﷺ)^(٢٠).

وفي (الإمامة والسياسة) لابن قتيبة الدينوري: (قال أبو معشر: قال لي رجل: بينا أنا في بعض أسواق الشام، إذا برجل ضخم، فقال لي: ممن أنت؟ قلت: رجل من أهل المدينة، قال: من أهل الخبيثة؟ قال: فقلت له: سبحان الله، رسول الله ﷺ سماها طيبة وسميتها خبيثة؟!)(^{٢٠}) ثم يحكي الرجل الضخم قصة مشاركته في غزو المدينة وانتهاك حرمتها بأمر يزيد، وقتل الصحابة والتابعين والأهالي العزل في وقعة الحرة. ويأتي الأمر بانتهاك حرمة مكة المكرمة أثناء ثورة ابن الزبير وهدم الكعبة وقتل المتحصنين بها كحلقة أخرى في سلسلة ممارسات بني أمية الإجرامية بحق الحرمين الشريفين.. وتكرر المشهد أيام الحجاج أيضاً، حيث عاد وهدم الكعبة بعد أن رممها ابن الزبير، لينبئها كما يريد هو وساداته!

✽ الإمام الحسين يشير إلى هذا الإفساد:

وقد أشار الإمام الحسين (عليه السلام) في بعض كلماته في نهضته إلى جانب من هذا الإفساد الفكري الذي مارسه الأمويون وبيان آثاره الفكرية والعملية على القوم الذي نكثوا عهودهم، أو انقلبوا عليه فقدموا لقتله، بعد أن صار المعروف عندهم منكراً

والمنكر معروفاً، وبعد أن ضاعت معالم الدين في تصوراتهم، وتخلّوا عن مسؤولياتهم. وفيما قاله: (تباً لكم أيتها الجماعة وترحاً، استصرختمونا واليهين فأصرخناكم موجفين، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحششتم علينا ناراً اقتدحناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم، بغير عدل أفشوه فيكم ولا أمل أصح لكم فيهم فهلا لكم الولايات تركتمونا والسيف مشيم «في غمده» والجأش طامن والرأي لما يستحصف «لم يحسم بعد» ولكن أسرعتم إليها كطيرة الدبا وتداعيتم إليها كتهافت الفراش. فسحقاً يا عبيد الأمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب ومحرّفي الكلم وعصبة الآثام ونفثة الشيطان ومطفئي السنن، أهؤلاء تعضدون وعناً تتخاذلون؟ أجل والله الغدر فيكم قديم وشجّت إليه أصولكم «التفت وتشابكت» وتأزرت عليه فروعكم فكنتم أخبت ثم شجاً للناظر وأكلة للغاصب. ألا وإن الدعي ابن الدعي قد ركز بين اثنتين، بين السلة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنين وحجور طابت وطهرت وأنوف حمية ونفوس أبيّة من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام)^(٢١).

وهو تصوير رائع لمدى تأثير ذلك الإفساد الفكري على القوم حتى عاشوا تلك الردة والمسخ الحضاري، فوقفوا ذلك الموقف، وسيدفعهم لارتكاب جرائمهم الكبرى التي شملت أكثر صور الخزي والعار لفعل يمكن أن يرتكبه أحد بالتمثيل في الجثث الطاهرة، وقطع الرؤوس وحملها على الأسنة، وقتل الأطفال والنساء، وأسر آل بيت النبوة وغير ذلك من فظائع يندى لها الجبين، ولم يكن يُقدم عليها الجاهليون.

وقد روي عن علي عليه السلام قوله قبل بدء معركة صفين: (لَا تَهَيَّجُوا النِّسَاءَ بِأَذَى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَّيْنَ أُمَرَائِكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ، إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ، وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ «الحجر الذي يكون بحجم الكف» أَوْ الْهَرَاوَةِ فَيَعِيرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ).^(٢٢)

وفي ليلة عاشوراء تحدث الإمام الحسين عليه السلام بما يتضمن نفس الفكرة التي تؤكد استحكام ذلك الفساد الفكري عند الناس، ففي (مجمع الزوائد) للهيثمي: (لما نزل عمر بن سعد بالحسين وأيقن أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيباً فحمد الله عز

وجل وأثنى عليه ثم قال: قد نزل ما ترون من الأمر، وإن الدنيا
تغيّرت وتنكرت وأدبر معروفها وانشمر حتى لم يبق منها إلا
صباغة الإناء إلا خسيس عيش كالمرعى الويل. ألا ترون الحق
لا يُعمل به والباطل لا يتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله
فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً^(٢٣).
فقد أوضح ﷺ أن الدنيا تغيرت عما كان يُفترض أن تكون
عليه بعد كل تلك الجهود التي بذلها النبي ﷺ والتضحيات
التي قدمها وصحبه من أجل تمكين الإسلام فكراً وعملاً،
وبالتالي فقد أنكرت وأدبر معروفها، بحيث صار المنكر معروفاً
والمعروف منكراً، ولا بد من إصلاح ما فسد وتقويم ما اعوج،
وإن أدى ذلك إلى الشهادة، وهو ما عبر عنه بقوله ﷺ: ليرغب
المؤمن في لقاء الله محققاً.

وما هو إلا نتاج ذلك الإفساد الفكري الذي مارسه الأمويون
حتى تحقق ما قد حذر منه النبي من قبل، ففي (كنز العمال)
للمتقي الهندي: (عن أبي أمامة عن النبي ﷺ: كَيْفَ بَكُمْ إِذَا
طَغَى نَسَاؤُكُمْ وَفَسَقَ شَبَابُكُمْ وَتَرَكْتُمْ جِهَادَكُمْ؟ قَالُوا: وَإِنَّ ذَلِكَ
لَكَائِنٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ

سَيَكُونُ. قَالُوا: وَمَا أَشَدَّ مِنْهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنْ مُنْكَرٍ؟ قَالُوا: وَكَأَنُّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ. قَالُوا: وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ؟ قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟ قَالُوا: وَكَأَنُّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ. قَالُوا: وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: بِي حَلَفْتُ لَا تُبَيِّنَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً يَصِيرُ الْحَلِيمُ فِيهَا حَيْرَانٌ^(٢٤).

أحياناً كثيرة تكون مشكلة الواقع الذي نعيشه أن الأمور تختلط فيه علينا من خلال الإفساد أو الفساد المفاهيمي الذي يؤدي إلى انقلاب المقاييس، فيصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً، ويصبح دعاة الإصلاح في عزلة، وليتغنى به حتى أولئك الذين زرعوا الفساد في كل مكان! وعلى سنة فرعون!

مثل هذا التشويه يحتاج إلى عملية جراحية لإعادة توظيف الإمكانيات في الخطط التي من شأنها إعادة إنتاج الأمة، ليكون لها رصيدها بين الأمم بعدما شوّه المفسدون صورتها وهددوا مستقبلها.

المصادر والتعليقات الختامية:

- (١) يونس: ٣٧-٤٠ .
- (٢) يونس: ٩٠-٩١ .
- (٣) القصص: ٣٨ .
- (٤) القصص: ٤ .
- (٥) يونس: ٨١ .
- (٦) غافر: ٢٦ .
- (٧) الأعراف: ١٢٧ .
- (٨) يونس: ٧٨ .
- (٩) غافر: ٢٩ .
- (١٠) يس: ١٨ .
- (١١) الأعراف: ١٤٢ .
- (١٢) البخاري: الجامع الصحيح - ح ٧٣٢٠ .
- (١٣) أحمد بن حنبل: المسند - ج ١٥ - ص ١٠ .
- (١٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام - ج ١ - ص ٤١٦ .
- (١٥) ابن الجوزي: المنتظم - ج ٧ - ص ٢٤٨ .
- (١٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ج ١٥ - ص ٢٤٢ .
- (١٧) ن.م. ج ٥ - ص ١٢٩-١٣٠ .
- (١٨) ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق - ج ١ - ص ٢٣٦٥ .
- (١٩) ابن المغازلي: المناقب - ح ١٨٦ .

- (٢٠) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ج ٩ - ٢٣٨ .
- (٢١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة - ج ١ - ص ٢٣٨ .
- (٢٢) ابن طاووس: اللهوف في قتلى الطفوف - ص ٥٨-٥٩ .
- (٢٣) نهج البلاغة - الكتاب ١٤ .
- (٢٤) الهيثمي: مجمع الزوائد - ج ٩ - ص ١٩٢ .
- (٢٥) العراقي: تخريج الإحياء - ج ٢ - ص ٣٨٠ .



مسؤولية الإصلاح

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾^(١). جعل الله من واجبات الصالحين في كل أمة النهي عن الفساد، وبالتالي فانتشار الفساد في أمة يدل على تقصير صالحيها في حق مجتمعهم.

فالآية تقرر بأنه كان المطلوب أن يكون من الأقوام التي عاشت في القرون السالفة جماعة عبّرت عنهم الآية بقولها: ﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾ أي جماعة جاءت بعدهم، وأفرادها يتحملون مسؤوليتهم وبالتالي ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ ولكن لم يحدث ذلك، فقد تبع الخلف السلف في طغيانه وتمردّه في عملية الفساد والإفساد أو السكوت عنه أو الرضا به.

نعم هناك استثناء بسيط: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ من الأنبياء والمؤمنين الذين اتبعوهم في الإيمان بالرسالة وجاهدوا في سبيل الله، وهؤلاء يمثلون القلة في المجتمع الذي سيطر عليه المترفون بكفرهم وضلالهم، ممن ظلموا أنفسهم ومن حولهم من الناس، والحياة التي تحيط بهم.

أما الصورة الغالبة فكانت بحيث استمر الفساد ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ حيث كانت وفرة النعم المادية والمعنوية عاملاً للمزيد من الإفساد على الصعيد الإيماني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والشخصي بما يرتبط بالشهوات.

وقد كان هذا الإفساد في الأرض والإعراض عن جهود الإصلاح جريمة: ﴿وَكُنَّا مُجْرِمِينَ﴾ وهي جريمة بشعة لأنه

يمثل الاعتداء على الحياة بكل روحيتها وعمقها الإنساني والمادي وامتدادها الرسالي نحو الله.

إن إنزال العذاب بالأمم المفسدة - بالنسبة إلى الله - لا يمثل انتقاماً شخصياً أو نابعاً من انفعال أو من عقدة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، لأن من الخطأ أن تتصور أن الله ﷻ يتعامل مع عباده في سلوكهم وممارساتهم، كما يتعامل الحاكمون الذين يقسون على رعيّتهم من موقع العقدة الذاتية التي تتلذذ بعذاب الآخرين وترتاح بظهور الألم في حياتهم، وتشعر بالعظمة أمام مشاريع هلاكهم، ولذا قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾.

إن الله غني عن ذلك كله، فهو الخالق والرازق والمنعم، الذي يملك القوة كلها، وهو الرحيم بعباده، وهو الحكيم الذي لا يتصرف إلا وفق الحكمة في الثواب والعقاب فلا يعاقب إلا على أساس ما يمثله العقاب من مصلحة للإنسان، وسلامة للحياة، وذلك في الحالات التي يستسلم فيها الناس للتمرد والعصيان والطغيان والانحراف، والإفساد لحياة الناس، فإن العقاب يمثل حالة رادعة، ومعاملة للمسئوم بما يستحق من

عذاب، بينما يمثل الثواب تكريم المحسن بما يستحق من نعيم، وإلا كان المحسن والمسيء بمنزلة سواء، وليس هذا من العدل في شيء، والله ﷻ هو العدل.

إن الناس إذا كانوا مصلحين في فكرهم وعملهم، فإن الله لا يمكن أن يعاقبهم لأنهم لم يرتكبوا ذنباً يُعاقَبون عليه، بل عملوا عملاً يثابون عليه، فيكون العقاب في هذه الحال ظلماً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولربما كانت العقوبة في أغلب الأحيان تتمثل في تحقيق الإنسان لمقدمات المعادلات السننية التي أودعها الله في المجتمعات البشرية، فحين يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - مثلاً - فإنه من الطبيعي أن يتقدم المفسدون في مواقعهم وتتعاظم قوتهم، الأمر الذي يجعل لحق الدمار بمجتمعهم على الصعيد الإداري والسياسي والبنية التحتية والعدالة الاجتماعية والقضاء وحقوق الناس أمراً بديهياً تحت وطأة كل مشاريع الإفساد التي لا تجد ما يمنع تضخمها وزادة قوتها التدميرية. وبالتالي يكون فهمنا للتعبير الوارد في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ وفق هذا

السياق الطبيعي لتسلسل مجريات الأمور نحو سوء العاقبة العامة لهذا المجتمع.

❁ مواجهة الإفساد بالقوة:

وفي إطار تحمل هذه الفئة ❁ أُولُو بَقِيَّةٍ ❁ لمسؤوليتها في مواجهة الفساد والإفساد، قد تصل الأمور إلى حد الاضطرار إلى المواجهة والقتال: ❁ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الذين إن مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ❁^(٢). ولنتوقف قليلاً عند دلالات هذه الآية.

لبشر سنة على طول التاريخ، تقتضي اندفاعهم الفطري لمواجهة الأخطار التي تهدد مصالحهم الخاصة والعامة.

وهذا الاندفاع الفطري ليس بالضرورة أن يكون بصورة القتال، بل بكل الوسائل الفكرية والعملية التي يستخدمها الناس في ساحات الصراع، من قبيل عقد التحالفات الضاغطة على الطرف المعادي، والحرب الإعلامية، والتحركات الدبلوماسية،

وحرب الفيروسات الإلكترونية.. إلخ. والآية لا تتحدث عن اندفاع المؤمنين فقط للدفاع عن دينهم ومقدساتهم، وإن كان هذا من أوضح مصاديق الآية ولا سيما بلحاظ سياقها حيث قال ﷺ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلُمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ..﴾^(٣)، بل تشمل صور الصراع بين القوى الكبرى، أو بين بعض الدول الكافرة فيما بينها، ليصب ذلك في مصلحة انشغالهم عن المؤمنين وعن مواجهة الدعوة الإيمانية، كما يقال في الدعاء: (اللهم اشغل الظالمين بالظالمين، وأخرجنا من بينهم سالمين).

لقد كانت إرادة الله ﷻ تقتضي عدم حصر القوة في قطب واحد في الحياة، ليدفع بعضهم عن بعضهم الآخر، ولذا كانت لدينا إلى فترة قريبة قوتان: الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، دفع كل منهما الآخر عن مواطن للتدمير والإفساد في الأرض لتضارب مصالحهما، ولذا كانت بعض الدول العربية مثلاً تلجأ إلى الاتحاد السوفييتي في مواجهة الدعم الأمريكي للكيان الصهيوني في حروبه.

وعندما نفذت الولايات المتحدة الأمريكية إلى الاتحاد السوفيتي في نقاط ضعفه الاقتصادية والمخابراتية هزمته، وسقطت دولة عظمى، وبدأ الحديث عن عامل أحادي القطب تفعل به الولايات المتحدة ما شاءت.. ولكن سرعان ما تغيرت الأمور بعوامل عديدة عسكرية وأمنية وسياسية واقتصادية أظهرت عجز هذه الدولة العظمى عن تنفيذ ما شاءت، وتم دفعها في أكثر من موقع فلم تحقق أجندتها كما أرادت.

ولذا فإن القوى العظمى عندما تتعاضد في بعض المواقع، سيكون إلى جانبها قوى قد تكون أقلَّ عظمةً منها في ميزان الكثرة العددية أو في ميزان النوعية، ولكنها تمنعها من أن تأخذ حريتها في ما تريده من عمليات الفساد والتخريب والهدم، وما إلى ذلك.. وهذا من سنن الله ﷻ.

ومن جهة أخرى بما أن أي قوى يختزن في داخله عناصر ضعف، وأي ضعيف يختزن في داخله مواقع قوة، ولذا يلجأ الضعيف لاستخدام هذه وتلك لينتصر على القوي: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٤).

وقد استفاد الفلسطينيون في العدوان الصهيوني على غزة

عام ٢٠١٢ م من هذه المعادلة، وسرعان ما تحرك الصهاينة دبلوماسياً من أجل إيقاف الصواريخ التي فاجأتهم في تل أبيب.. وهكذا كان الأمر في ٢٠٠٦ م مع المقاومة في لبنان.. فلكل قوي نقاط ضعف.. ولكل ضعيف نقاط قوة.

وكان الآية تقول: أيها الناس، لا تستسلموا لمن يملك القوة، لأن الله لم يمنحه القوة المطلقة، لقد أعطاكم قوة فلا تهملوها، ولا تغفلوها، بل حاولوا أن تحركوها في مواجهة الضعف الذي عند العدو. إنَّ هذا الإيحاء من الآية لا بد أن نستفيد منه في الحركة السياسية والأمنية وحتى الاقتصادية.

ولذلك كان تشريع القتال منسجماً مع هذه السنّة التي فطر الله الطبيعة الإنسانية عليها، فقد أودع في الإنسان الكثير من الحوافز الغرائزية التي تتحفز لمواجهة أي خطر من الآخرين يهدد الذات، بتعطيل أو إرباك أي مرفق من مرافق حياتها، أو بالتأثير على أيّة مصلحة من مصالحها، لتستمر الحياة الاجتماعية للناس في نظام دفاعي ذاتي متوازن.

وإذ كانت هذه الطبيعة الإنسانية قابلة للانحراف، وبالتالي فإنها قد تدفع الإنسان للقتال بغياً وعدواناً، لا للدفاع عن الذات

والحق، فقد أكد الله على ضرورة القتال على أساس القيم الإنسانية الروحية التي تحركه في الاتجاه الصحيح، الذي يحمي الإنسان، ويمنعه من البغي والعدوان، ويوظف النصر بما يحقق للبشرية الخير عندما تسير وفق شرع الله، وتلتزم بأوامره وتنتهي عن نواهيه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ بما يشمل عنوان المعروف والمنكر من مصاديق كثيرة ترتبط بالحياة كلها، سواء على المستوى الديني أو السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي أو العلمي أو الثقافي.. وليس على المستوى الفردي فقط.

إن ذكر خصوص الصوامع والبيع والصلوات والمساجد فيما يدافع عنه في هذا الصراع لربما يشير إلى أن الله ﷻ يؤكد ضمناً على أن ما تعانيه البشرية من كل صور الفساد والظلم والصراعات الباطلة يأتي في المقام الأول بسبب ابتعاد الإنسان عن الله ﷻ، فتلك الأمكنة العبادية هي المنوط بها هداية الناس عبر التاريخ إلى الله عقيدهً وشرعةً ومسلكاً، وزوالها يعني زوال منابع الهداية عند البشرية، وبالتالي الإمعان في الفساد والظلم

والصراع بالباطل، ولذا كان من سنة الله أن يدفع الناس بعضهم ببعض بكل صور الدفع لتبقى مواقع الهداية قائمة حية وفاعلة ومؤثرة.

ولئن صدق البعض في نصر الله، فإن الله ينصره، سواء في المواجهة الميدانية مع قوى الكفر، أو من خلال امتداد تأثير تلك المواجهة مع قوى الكفر على سائر الناس أو عبر الزمن ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ وفي هذا التعبير تأكيد مكرر لئلا يتغلغل إلى قلب الإنسان أي نوع من الشك في ذلك.

وليعلم الإنسان الحقيقة التالية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فلا يستطيع أحد منعه من تحقيق ما يريد، لأنه المهيمن على كل شئ، وقوته هي القوة المطلقة التي لا تقف عند حد، ولا يملك أحد أن يقف أمام إرادته، في ما يحكم به أو يقدره، لأنه العزيز الذي لا يستطيع أحد أن ينتقص من عزته شيئاً.

✽ الإمام الحسين والإصلاح بالقوة:

ومن هنا كانت حركة الحسين عليه السلام هي صورة من صور الاستجابة لمضمون هذه الآيات القرآنية، في مواجهة كل الفساد الفكري والعملية والروحي وكل الظلم وكل القهر وكل

القتل الذي كان يُمارس من قبل الأمويين وأعوانهم، ولولا هذا الدفع الذي قام به الإمام الحسين عليه السلام من خلال يوم عاشوراء، لما بقي للدين باقية، ولزالت صورة الإسلام عند الناس بمرور الوقت من خلال المشروع الأموي الذي ما استكان لحظة في طريق تحقيق هذا المخطط الشيطاني.

وقد نصر الله القويَّ العزيز عليه السلام الحسين عليه السلام حين نصره، وإن استشهد ومن معه في ساحة المعركة، وذلك من خلال التأثير الكبير لثورته على الناس، والصدمة التي صدم بها الواقع، فنهضت الأمة لتراجع نفسها، وتنتفض من موقع إلى آخر ضد صور الفساد والإفساد والظلم والتلاعب بالدين والمقدرات.

كما نصر الله القويَّ العزيز الحسين عليه السلام حين نصره، من خلال هذا الامتداد الزمني للنهضة الحسينية، فصارت مشعلاً للثورات والثائرين، وعنواناً بارزاً من عناوين صراع الحق مع الباطل.

✽ ثورات متلاحقة:

ولنأخذ أمثلة من تلك الثورات التي هزت كيان الأمويين:

١- ثورة أهل المدينة: وهي التي خرج فيها الصحابة والتابعون في المدينة المنورة على يزيد بن معاوية وخلعوه بعد السنة التي

قتل فيها الحسين عليه السلام، وقد بين عبد الله ابن الصحابي حنظلة الملقب بغسيل الملائكة - كما ينقل ابن عساكر في (تاريخ مدينة دمشق) - علة هذا الخروج بقوله: (لما وثب أهل المدينة ليالي الحرة فأخرجوا بني أمية عن المدينة وأظهروا عيب يزيد بن معاوية وخلافه، اجمعوا على عبد الله بن حنظلة فأسندوا أمرهم إليه فبايعهم على الموت وقال: يا قوم اتقوا الله وحده لا شريك له، فوالله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء!! إن رجالا ينكح الأمهات والبنات والأخوات، ويشرب الخمر ويدع الصلاة. والله لو لم يكن معي أحد من الناس لأبليت لله فيه بلاء حسناً. فتوائب الناس يومئذ يبايعون من كل النواحي، وما كان لعبد الله بن حنظلة تلك الليالي مبيت إلا المسجد، وما كان يزيد على شربة من سويق «طعام يتخذ من القمح كالعصيدة» يفطر عليها إلى مثلها من الغد يؤتى بها في المسجد، يصوم الدهر وما رئي رافعاً رأسه إلى السماء إخباتاً. فلما دنا أهل الشام من وادي القرى صلى عبد الله بن حنظلة بالناس الظهر ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنما خرجتم غضباً لدينكم فأبلوا لله بلاءً حسناً ليوجب

لكم به مغفرته ويحل به عليكم رضوانه)^(٥).

وقد أرسل إليهم يزيد جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة الذي دخل المدينة واستباحها لمدة ثلاثة أيام، وانتهك الأعراس حتى قيل إنه افتضت فيها ألف عذراء، وذكر العيني في كتابه (عمدة القاري) أنه: (ولدت ألف امرأة من أهل المدينة من غير زوج)^(٦)! وقد قُتل في هذه الواقعة خلق كثير، سبعمائة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، وشملت إبادة من حضر من البدرين بالكامل. واختلفت في عدد من قُتل من سائر الناس، فقليل أربعة آلاف، وقيل أنه أبيد من الموالي والعرب عشرة آلاف!

قال ابن كثير في (البداية والنهاية): (فدخل مسلم بن عقبة المدينة فدعا الناس للبيعة على أنهم خول «عبيد وخدم» ليزيد ابن معاوية، ويحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم ما شاء... وقد أخطأ يزيد خطأ فاحشاً في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيع المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأ كبير فاحش، مع ما انضم إلى ذلك من قتل خلق من الصحابة وأبنائهم، وقد تقدم أنه قتل الحسين وأصحابه على يدي عبيد الله بن زياد. وقد وقع في

هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل، وقد أراد بارسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه، ودوام أيامه من غير منازع، فعاقبه الله بنقيض قصده، وحال بينه وبين ما يشتهي، فقصمه الله قاصم الجبابرة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد. قال البخاري في صحيحه... عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص عن أبيها قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يكيد أهل المدينة أحد إلا انماع كما ينماع الملح في الماء. وقد رواه مسلم من حديث أبي عبد الله القراظ المدني، واسمه دينار، عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال: لا يريد أحد المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص، أو ذوب الملح في الماء^(٧).

٢- ثورة التوابين: تفجرت هذه الثورة سنة ٦٥ هـ بقيادة سليمان ابن صرد الخزاعي، وكان شعارهم (يا لثارات الحسين) فقد خرجوا بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام إعلاناً للندم على عدم نصرته، وتمرداً على الواقع البائس الذي ترتب على استكبار بني أمية وفسادهم وإفسادهم، فقاتلوا الجيش الأموي بمنطقة

(عين الوردية) القرية من (الرقعة) في الشام، حتى استشهدوا. ومن خلال قراءة تفاصيل أحداث ما بعد واقعة الطف يتبين أن مجموعة من أهل الكوفة بدأت تجتمع بعد مقتل الإمام الحسين (عليه السلام) مباشرة في إطار من السرية التامة، في حالة من النقد الذاتي، وذلك لمحاسبة أنفسهم على التقصير الذي أظهروه إزاء الحسين (عليه السلام)، والتشاور على كيفية التكفير عن الذنب وغسل العار الذي لحق بهم نتيجة هذا التخاذل، فتزعم التحرك الشيعي حينئذ خمسة من كبار الزعماء الكوفيين المتقدمين في السن، الذين ارتبطوا تاريخياً بالإمام علي (عليه السلام) وآله، وهم: سليمان بن صرد الخزاعي، المسيب بن نجبه الفزاري، عبد الله بن سعد بن نفيل الأزدي، عبد الله بن وال التميمي، رفاعة بن شداد البجلي.

فبدؤوا يمارسون نشاطهم في الخفاء، ويشيرون بدعوتهم الانتقامية في أوساط الشيعة، بعيداً عن مراقبة السلطة وجواسيسها المنتشرين في كل مكان، وشكلوا تجمعا سرّياً من نحو مائة معارض، ولم يلبث ذلك التجمع حتى تحوّل إلى معارضة شيعية كبرى تحمل عنوان (التوايين). وقد صارت هذه

التسمية هي الغالبة على حركة سليمان ورفاقه، انطلاقاً من الآية الكريمة التي أصبحت شعارهم: ﴿فَتَوْبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٨).

جمع سليمان بن صرد الخزاعي أنصاره في منطقة النخيلة، في الخامس من ربيع الثاني ٦٥هـ، ثم سار بهم إلى قبر الإمام الحسين (عليه السلام)، وكان عددهم يقارب أربعة آلاف رجل، فما أن وصلوا إلى القبر الشريف، حتى صاحوا صيحة واحدة، وازدحموا حول القبر، فما رؤي أكثر باكياً من ذلك اليوم، فترحموا عليه، وتابوا عنده من خذلانه وترك القتال، وتجديد العهد معه. تحرّك القائد سليمان بن صرد - بعد زيارة قبر الإمام الحسين (عليه السلام)، وتجديد العهد معه - مع جنده قاصدين الشام، فوصلوا إلى الأنبار، ومنها إلى القيارة وهيت، ثم إلى قرقيسيا - وهي بلدة على مصب نهر الخابور في الفرات - وبعدها منطقة عين الوردة.

وفي الثاني والعشرين من جمادى الأولى ٦٥هـ، دارت في منطقة عين الوردة رحى الحرب بينهم وبين جند الشام، وأبلى

التَّوَابُونَ بلاءً حسناً، فكان لهم النصر أول الأمر، غير أن ابن زياد سرعان ما أمدَّ جيش الشام باثني عشر ألفاً بقيادة الحصين بن نمير، ثمَّ بثمانية آلاف بقيادة شرحبيل بن ذي الكلاع، فأحاطوا بالتَّوَابِينَ من كلِّ جانب، فلما رأى سليمان ما يلقي أصحابه من شدة، ترجَّل عن فرسه، وهو يومئذٍ في الثالثة والتسعين من عمره، وكسر جفن سيفه وصاح بأصحابه: يا عباد الله، من أراد البكور إلى ربِّه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهد، فليأت إليّ. فاستجاب له الكثيرون، وحذوا حذوه، وكسروا جفون سيوفهم، وقتلوا من أهل الشام مقتلة عظيمة، حتَّى أُصيب زعيمهم سليمان بسهم، فوقع وهو يقول: فزت وربَّ الكعبة. وحمل الراية بعده المسيَّب بن نجبة، فقاتل بها حتَّى استشهد، بعد جهود مستمّية، وتبعه بقية القوَّاد وعدد كبير من المقاتلين، باستثناء رفاعه بن شداد الذي اعترف بالهزيمة وأدرك عدم جدوى القتال، وكانت القيادة قد انتقلت إليه، فأصدر أوامره سرّاً إلى البقية الباقية من التَّوَابِينَ بالانسحاب والتراجع. وتمَّت عملية التراجع بنجاح، وابتعد التَّوَابُونَ المنسحبون عن ميدان المعركة، وأصبحوا في منأى عن مطاردة الجيش الأموي.

٣- ثورة المختار: كانت بعد عام من ثورة التوابين، أي في سنة ٦٦ هـ، قادها المختار بن عبيد الله الثقفي في الكوفة، رافعاً شعار (يا لثارات الحسين)، واستطاع من خلالها قتل قتلة الحسين (عليه السلام)، كعمر بن سعد وعبيد الله بن زياد وحرملة ابن كاهل الأسدي وشمر بن ذي الجوشن. بالإضافة إلى السيطرة على الكوفة وأنحاء أخرى من العراق لمدة سنتين تقريباً.

وفي تلك الأثناء كان عبدالله بن الزبير قد انتفض على الأمويين، واستفحل أمره في الجزيرة العربية، فولّى سنة ٦٧ هـ أخاه مصعباً على العراق، وطلب منه أن لا يبقى للمختار وأصحابه باقية فيها. ووقع القتال في البصرة بين مصعب وقوة تابعة للمختار، فانتصر الأول، وتوجه نحو الكوفة، وحاصر المختار في قصره لأربعة أشهر، انتهت بمقتله وقطع رأسه، في الرابع عشر من رمضان سنة ٦٧ هـ.

وهكذا توالى الثورات كثرة زيد ابن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) في الكوفة سنة ١٢١ هـ ضد هشام بن عبد الملك حيث بلغ تردي الأوضاع وانتشار الظلم والفساد

والفقر وبذخ الحكام مبلغاً لا يطاق، مما حدا بزيد الشهيد للقيام بثورته، ثم ثورة يحيى ابنه، وكانت سنة ١٢٥ هـ بعد مقتل أبيه زيد، وقد أقبل إليه جيش الأمويين وهو مقيم بأبرشهر القريبة من مدينة مشهد الحالية، فقاتلهم يحيى وما معه إلا سبعين فارساً فقتل قائدهم وانهزموا، ثم انتقل إلى نواح من أفغانستان الحالية، فقاتله جيش آخر حتى استشهد يحيى بعد قتال دام ثلاثة أيام، وثورة عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر بن أبي طالب أبان حكم إبراهيم بن الوليد بن عبدالملك بن مروان، وثورة عبدالرحمن بن الأشعث أبان حكم عبدالملك بن مروان.

وكان للخوارج نصيبهم من الثورات أيضاً، تارة بقيادة نجدة ابن عامر في البحرين واليمامة فقتل سنة ٦٢ هـ، ونافع بن الأزرق المقتول بالبصرة سنة ٦٥ هـ، وعبدالله بن الماحوز المقتول بالأهواز بعد هزيمته سنة ٦٦ هـ، وقطري المازني المقتول سنة ٧٧ هـ، وسواهم من قادة الخوارج.

كما شهد البيت الأموي ثورات داخلية، كثورة الضحاك بن قيس الفهري في محاولته للاستقلال عن حكم بني أمية، وعمر بن سعيد الأشدق الخارج على عبدالملك بن مروان

عام ٦٩هـ، وسلم بن زياد الذي دعا إلى البيعة لنفسه عام ٦٥هـ بخراسان، ويزيد بن المهلب بن أبي صفرة الخارج على يزيد بن عبد الملك بن مروان وقتل سنة ١٠٢ هـ^(٩).

❁ هزيمة عسكرية أم انتصار خالد؟

وللدكتور يوسف سعادة في كتابه (الجهاد بين النظرية والتطبيق) تعبير جميل في المقام قال: (لم يعرف التاريخ هزيمة كان لها الأثر لصالح المهزومين كما كان لدم الحسين. فانهزم الحسين في كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده، ولكنه ترك الدعوة التي قام بها مُلك العباسيين والفاطميين، وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود والروم، ومثلٌ للناس في حلة من النور تخشع لها الأبصار. و باء بالفخر الذي لا فخر مثله في تواريخ بني الإنسان، غير مستثنى منهم عربي ولا أعجمي، ولا قديم ولا حديث. فقد أثار مقتله ثورة ابن الزبير وخروج المختار وانقضى الأمر إلى ثورات أخرى حتى زالت الدولة الأموية، بعد أن صارت ثارات الحسين هي الصرخة المدوية لتدك العروش وتزيل الدول. فأصبحت هذه الثارات نداء كل دولة تفتح لها

طريقاً إلى الأسماع والقلوب. وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء، فإذا بالدولة العريضة تذهب في عمر رجل واحد مديد الأيام، وإذا بالغالب في يوم كربلاء أخسر من المغلوب إذا وضعت الأعمار المنزوعة في الكفتين. والثورات التي اعتمدت ثورة الحسين عليه السلام طريقاً لها وتأثراً بها لا تعد ولا تحصى^(١٠).



المصادر والتعليقات الختامية:

- (١) هود: ١١٦-١١٧ .
- (٢) الحج: ٤٠-٤١ .
- (٣) الحج: ٣٩-٤٠ .
- (٤) البقرة: ٢٤٩ .
- (٥) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق - ج ٢٧ - ص ٤٢٩ .
- (٦) العيني الحنفي: عمدة القاري - ج ١٧ - ص ٢٦ .
- (٧) ابن كثير: البداية والنهاية - ج ٨ - ص ٢٤٣-٢٤٤ .
- (٨) البقرة: ٥٤ .
- (٩) للمزيد طالع كتاب: الجهاد بين النظرية والتطبيق للدكتور يوسف جعفر سعادة .
- (١٠) يوسف سعادة: الجهاد بين النظرية والتطبيق - ص ٢٣٠ .



القائمون على الإصلاح

كيف يتحقق الإصلاح في المجالات المختلفة؟ ومن الذي يأخذ بزمام المبادرة؟ ومن الذي يقود عملية الإصلاح؟ عندما نعود إلى النصوص القرآنية نجد أن الأنبياء، كالنبي صالح والنبي لوط والنبي شعيب والنبي يونس عليه السلام أخذوا على عاتقهم مسؤولية الإصلاح، وقد يوفقون لذلك كما جرى للنبي يونس عليه السلام، ولربما تؤدي عملية الإصلاح ثمارها

في جيل لاحق كما جرى للنبي موسى ﷺ مع بني إسرائيل حيث استدعى الأمر الكون في التيه أربعين سنة حتى يأتي الجيل الجديد الذي سيتحمل مسؤولياته، ولربما لا تسمح لبعض الأنبياء الظروف، ويواجهون بالعنف والقوة حتى تصل الأمور إلى درجة القضاء عليهم قتلاً كالنبي يحيى ﷺ، أو محاولة ذلك كما حصل مع النبي عيسى ﷺ، أو نزول العذاب السماوي الذي يستأصل ذلك المجتمع الفاسد كما جرى لقوم النبي لوط ﷺ.. مع التأكيد على أن عملية الاستئصال هذه تعتبر حالات استثنائية، وقد انتهى زمانها بانتهاء زمن المعاجز التي كان يأتي بها الأنبياء في مقام التحدي.

✽ الإصلاح مسؤولية الجميع:

فهل هذا يعني أن مسؤولية الإصلاح منحصرة فيهم، بحيث أنهم هم المكلفون بذلك دون غيرهم، وبحيث أنهم لو لم يتحملوا هذه المسؤولية فقد سقط التكليف عن الجميع؟

المسألة ليست بهذه الصورة، فبعض الأفراد خارج دائرة النبوة كذي القرنين تحمل هذه المسؤولية، وقد تناولنا جانباً من ذلك في بحث سابق، ولربما كانت دلالة الآية التالية

تشير إلى حقيقة عموم المسؤولية: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(١). باعتبار الإصلاح من فروع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومصاديقه.

وهكذا نجد قول النبي ﷺ: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ)^(٢)، ومن ضمن هذه المسؤوليات تأتي مسؤولية إصلاح المجتمع.. وفي نص نبوي آخر: (لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسْلَطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شَرَارَكُمْ، فَلَيُسْؤِمَنَّكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ يَدْعُوْكُمْ خِيَارَكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ، لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيَبْعَثَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ لَا يَرْحَمُ صَغِيرَكُمْ، وَلَا يُوقِرُ كَبِيرَكُمْ)^(٣).

ومن الواضح أن الفساد من صور المنكر بمعناه الواسع الذي لا يتوقف عند حد المعاصي الفردية المرتبطة بشرب الخمر والزنا وعدم الصلاة. وهو ما تضمنته كلمة الحسين عليه السلام: (وإنما خَرَجْتُ لَطَلَبِ النَّجَاحِ وَالصَّلَاحِ فِي أُمَّةٍ جَدِي مُحَمَّدٌ ﷺ أُرِيدُ أَنْ أَمُرَّ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَسِيرَ بِسِيرَةِ جَدِّي مُحَمَّدٍ ﷺ وَسِيرَةِ أَبِي عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ)^(٤).

وهناك نصوص أخرى في مصادر الثقافة الإسلامية تؤكد على تحمل الجميع هذه المسؤولية، وعدم قصرها على طبقة معينة. ولكن المشهود أن غالبية المشاريع الإصلاحية الواسعة انطلقت - وما زالت تنطلق - من خلال قيادة دينية (نبي، وصي، عالم دين) ولربما يعود ذلك إلى أن عملية الإصلاح تحتاج إلى شخصية تتمتع بمواصفات معينة من قبيل العلم والحكمة والشجاعة والإقدام والإخلاص، وحتى الزهد بالدنيا، وهي عادة لا تجتمع في كل أحد.

قد يقال أن في الساحة المعاصرة نجد بعض الأحزاب تقوم بهذا الدور أحياناً، كما لربما يقال أن ثورات الربيع العربي برهنت على أن الشعوب أيضاً قادرة على الإصلاح.

ولكن يبدو أن غالبية الأحزاب في بدء تشكلها تقوم على يد شخصية متميزة (دينية أو حقوقية) وهي تنهل من رؤاه أو تنطلق من مشروعه الإصلاحية في الأساس، ثم تبني على ذلك وتعينه وتستمر من بعده في هذا الاتجاه ولربما تنحرف لاحقاً، وتتحول إلى عامل جديد للفساد والإفساد بدلاً من الإصلاح.

وأما الثورات الشعبية التي لا تنطلق من قيادة واضحة بل

تأتي عشوائية كردة فعل ثم تقودها مجاميع تختلف في رؤاها ومشاريعها وتتفق في مواجهة الوضع الفاسد، فتشكل الخطوة الأولى والمهمة للإصلاح، ولكنها لا تمثل العملية الإصلاحية ككل، ولذا سرعان ما تتحول الأمور لتبرز جهة أو شخص يأخذ على عاتقه ذلك، أو يحرف الثورة عن مسارها أو يجيرها لصالحه.

✽ العلماء والإصلاح:

وعلى كل حال، سواء أوافقنا على ذلك أم لا، فإن الصورة الغالبة للمشاريع الإصلاحية تقوم على يد أفراد، والمرشح الأمثل في الدائرة الإسلامية للقيام بهذا الدور في هذا العصر هم علماء الدين، ولحساسية هذا الأمر وخطورته نجد التعبير التالي في الحديث المروي عن النبي ﷺ: (إِذَا ظَهَرَتِ الْبِدْعُ فِي أُمَّتِي فَعَلَى الْعَالَمِ أَنْ يُظْهَرَ عِلْمُهُ ، فَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لَا يَقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ)^(٥)، مع ملاحظة أن عنوان (البدع) لا يقف عن حد التغيير في صورة الوضوء والصلاة مثلاً، بل يشمل القضايا الفكرية والعقدية والسلوكية. وقد جاء في كلمة الحسين عليه السلام: (من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام أو تاركاً لعهد الله ومخالفاً

لسنة رسول الله ﷺ فعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ثم لم يغير عليه بقول ولا فعل، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله^(٦). ولذا يفترض بعلماء الدين أن ينهضوا بهذه المسؤولية، فهم ورثة الأنبياء بحسب الحديث النبوي، والوراثة ليست وراثة علمية فقط، بل وراثة للمسؤولية أيضاً في إصلاح الواقع الفاسد، لأن الأنبياء لم يحملوا العلم فقط، ولم يكونوا أكاديميين بالمصطلح الحديث، بل كانوا رجالات إصلاح وتغيير وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

ولا يستطيع عالم الدين أن يقوم بدوره الريادي ويصلح ما لم يكن هو في نفسه إنساناً صالحاً، وقد هيأ نفسه وأعدّها للقيام بذلك، وإلا فالخراب كلّ الخراب إن حصل عكس ذلك، سواء بالتخلي عن المسؤولية رضياً بالواقع تحت تبريرات واهية، أو بالانغماس في عالم الفساد ليصبح رمزاً فيه أو مستفيداً منه بنحو أو بآخر.

وإلى هذا يشير رسول الله ﷺ بقوله: (صِنْفَانُ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلَحَا صَلَحَتْ أُمَّتِي. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ هُم؟ قَالَ: الْفُقَهَاءُ وَالْأَمْرَاءُ)^(٧). وفي حديث آخر: (الْعُلَمَاءُ أُمْنَاءُ الرُّسُلِ مَا لَمْ

يُخَالِطُوا السُّلْطَانَ وَيُدْخِلُوا الدُّنْيَا، فَإِذَا خَالَطُوا السُّلْطَانَ وَدَاخَلُوا الدُّنْيَا فَقَدْ خَانُوا الرُّسُلَ فَاحْذَرُوهُمْ^(٨). وعن الإمام عليّ عليه السلام: (زَلَّةُ الْعَالَمِ كَانْكِسَارِ السِّفِينَةِ، تَغْرَقُ وَتُغْرَقُ)^(٩).

فكما أنَّ الخير يأتي من الأمراء الذين يعتبرون الإمارة مسؤولية لا امتيازاً، كذلك الخير يأتي من الفقهاء الذين يعتبرون الدين مسؤولية لا امتيازاً ولا سلطة.. وكما أنَّ الخطر، كلَّ الخطر، في فساد الأمراء والزعماء عندما يعبثون بمصالح الأمة ومستقبلها، فالخطر سيكون أكبر عند فساد الفقهاء.

ولنلاحظ الحديث النبوي التالي: (وَيْلٌ لِّأُمَّتِي مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ يَتَّخِذُونَ هَذَا الْعِلْمَ تِجَارَةً يَبِيعُونَهَا مِنْ أَمْرَاءِ زَمَانِهِمْ رِبْحاً لِنَفْسِهِمْ لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَهُمْ)^(١٠).

❁ العلماء الفاسدون:

إن خطورة فساد عالم الدين تتبدى في أنه يمثل بالنسبة لكثيرين قدوة عملية، بالإضافة إلى كونه مصدراً لمعرفة التكليف الشرعي وأخذ المعارف الدينية منه، ففساده إفساد وإن لم يعمل على ذلك.

ومن صور إفساده أنه يعطي النموذج السيئ الذي لربما يدفع

الآخرين للكفر بالدين نفسه، وبتعبير المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله: (فيكون حجةً للناس ضدَّ الإسلام، بدلاً من أن يكون حجةً للإسلام)، فالعنوان الذي يحمله الإنسان يؤثر في جمال أو قبح العمل، ولذا جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (الْحَسَنُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ حَسَنٌ وَمِنْكُمْ أَحْسَنُ لَأَنْتُمْ تُنْسَبُونَ إِلَيْنَا، وَالْقُبْحُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ قُبْحٌ وَمِنْكُمْ أَقْبَحُ لَأَنْتُمْ تُنْسَبُونَ إِلَيْنَا)^(١١).

وقد يقول قائل أن ترك محاسبة علماء الدين أو حتى نقدهم أولى باعتبار أنه يؤثر في احترام المجتمع للعلماء ويهز مكانتهم.. ولكن التدقيق في الأمر يستدعي القول بأن المصلحة العامة تقتضي أن يميّز الناس بين علماء الدين العاملين من جهة، وعلماء الدين الذين يستغلّون الدين لمصالحهم وأهوائهم فيفسدون في الأرض من جهة أخرى؛ فإنَّ إفقاد الناس القدرة على التمييز، فضلاً عن إضفاء القانون نفسه حمايةً لهؤلاء بما يؤدّي إلى تقديس الأخطاء وتبريرها، مفسدةٌ عظيمة، وإهلاكٌ للأمم كما أكدت ذلك النصوص السابقة.

وهناك نماذج كثيرة تؤكد على أن العمل بالتبرير السابق أدى

إلى تمادي الفاسدين منهم في غيِّهم وفسادهم؛ والزِّيَّ إنّما يمنح العالم احتراماً من خلال علمه، والقداسة يمنحها الناس للذين اختبروا عملهم بعلمهم في مختلف الظروف والأحوال. - فليكن للعلماء في سلوك أمير المؤمنين (عليه السلام) القدوة، وليكن للناس في تكوين الموقف من هذه القضية الأسوة، إذ نروي ذلك الموقف الرائع من الإمام عليّ (عليه السلام)، وقد اشتكى عليه يهودي زوراً، فقبل الإمام التحاكم، ولم يرض عليّ (عليه السلام) أن يكنّيه القاضي وينادي اليهودي باسمه، حتّى حكم القاضي أخيراً لليهودي؛ لفقدان البيئة عند عليّ (عليه السلام) .. ونزل الإمام عند ذلك الحكم! فمن منّا يقبل هذا المنطق!؟

متى ما كان عالم الدين صالحاً ومُصلحاً فإن درجته عند الله عظيمة: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(١٢)، وعلى الناس أن يرفعوه بما رفعه الله به، ورفعتهم له دليل على التزامهم بالقيم الحضارية والتعاليم الإيمانية.

وتبقى حقيقة أن هذا الامتياز يمثّل درجة أعلى من المسؤولية، وهي مسؤولية كون العالم أوّل المطبّقين لما يقول عملياً،

كما قال ﷺ عن نبيه الأكرم ﷺ: ﴿وَأْمَرْتُ لَأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(١٣)، وقد روي عنه ﷺ في آخر حياته أنه قال: (معاشر الناس ليس بين الله وبين أحد شيء يعطيه به خيرا، أو يصرف عنه به شرا إلا العمل، أيها الناس لا يدعي مدع ولا يتمنى متمن، والذي بعثني بالحق نبيا لا ينجي إلا عمل مع رحمة، ولو عصيت لهويت اللهم هل بلغت؟)^(١٤).

إن من الخطأ أن نتصور أن نقد أو محاسبة المتزبي بالزي الديني من مروّجي الفتن وضعفاء النفوس، ومن لا يعرفون الحق، أو إذا عرفوه لم يثبتوا عليه أمام المفسدين في المجتمع، هو نقد أو محاسبة للدين وقداسته.. فهذه النظرة الخاطئة أضفت عليهم هالة من القداسة المذهبية التي تحميهم، ودخل المسلمون في شرك حماية التخلف باسم تقديس العلماء، وفي أتون الفتنة باسم المحافظة على رموز المذهب.

لقد كسر القرآن هذا الحاجز الوهمي بقوله ﷺ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ

يَلْهَتْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيَاتِنًا فَاقْضُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٥﴾ ، مقدماً نموذج العالم الفاسد المتخلى عن مسؤولياته والذي وصل به الأمر بحسب بعض النصوص إلى درجة الاصطفاف إلى جانب الحاكم الفاسد ضد نبي زمانه!

وما أكثر مَنْ كرروا هذه الصورة من الأبحار والرهبان الذين ذمهم القرآن الكريم في مواجعتهم لأنبياء زمانهم حتى قال زكريا عليه السلام: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا، يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ ^(١٦) ، وما زال (علماء الدين) يكررونها عبر الزمان في الدائرة الإسلامية.

وفي المقابل نجد صوراً أخرى رائعة - وإن ندر بها الزمان - تُمثل قمة تحمل المسؤولية والإخلاص والشجاعة والتفاني والتضحية في مواجهة الفساد والمفسدين في الأرض، خلدهم التاريخ وإن حاربهم المفسدون وأصحاب المصالح والأهواء حتى من أقرانهم ومن شاركوهم عنوانهم العلمي .

ومن هذه النماذج الإمام السيد روح الله الخميني (ت ١٤٠٩ هـ) الذي عندما نتذكر ثورته في منطلقاتها وفي عطاءاتها نجدها

مصدقاً لقوله ﷺ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(١٧).

وكذلك الشهيد السعيد مفجر الثورة الإسلامية في العراق السيد محمد باقر الصدر (ت ١٤٠٠هـ) المقتول غدراً على يد الطغمة البعثية الحاكمة حينئذ في العراق، وقد قال فيه الإمام الخميني: (كان السيد محمد باقر الصدر مفكراً إسلامياً فذاً، و كان مؤملاً أن ينتفع الإسلام من وجوده بقدر أكبر، و أنا أمل أن يقرأ المسلمون ويدرسوا كتب هذا الرجل العظيم. لقد كان المرحوم الصدر شخصيةً علميةً، و مجاهداً مضحياً من مفاخر الحوزات العلمية ومراجع الدين والمفكرين المسلمين، فلا عجب لشهادة هؤلاء العظام الذين أمضوا عمراً في الجهاد في سبيل الأهداف الإسلامية)^(١٨).

ثم المرجع والمفكر الإسلامي الكبير السيد محمد حسين فضل الله (ت ١٤٣١هـ) الذي أعاد إلى المشهد العام في عالمنا

الإسلامي دور العالم الموسوعي من جهة، والفقهاء الرسالي الحركي من جهة أخرى، وذلك من خلال وعيه بالتراث وبالتاريخ وبالدين، ومن خلال متابعاته الدائمة والقريبة لحركة الواقع في الحياة، فصنع أجيالاً من الشباب المتدين والرسالي ومن أصحاب الوعي وهمة التغيير.

لقد تحمل كل منهم مسؤولية الإصلاح ومواجهة الفساد والمفسدين وفق رؤاهم وأساليبهم الخاصة وظروف مجتمعاتهم وخصوصياتها.

✽ الحسين وارث الأنبياء:

لقد عانى المجتمع الإسلامي الكبير الذي عاصره الإمام الحسين عليه السلام من نماذج العلماء الفاسدين والمفسدين، فكانت نهضته لإصلاح الواقع الفاسد بما في ذلك تعرية وعاظ السلاطين والأكليين باسم الدين، وهو القائل: (الناسُ عبيدُ الدنيا والدينُ لعقُّ على ألسنتهم، يحوِّطونه ما دَرَّتْ مَعَايشُهُمْ، فإذا مُحِّصُوا بالبلاءِ قَلَّ الدَيَّانُونَ)^(١٩)، فلقد عمل بعضهم على تبرير الواقع الفاسد، وتصوير أي جهد للإصلاح على أنه بمثابة إفساد في الأرض، ووضعوا الأخبار على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله

كقول القائل: (قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى نَدْعُ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مِثْلُ مَا ظَهَرَ فِي بَنِي
إِسْرَائِيلَ، إِذَا كَانَتْ الْفَاحِشَةُ فِي كِبَارِكُمْ وَالْمُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ
وَالْعِلْمُ فِي رُذَالِكُمْ)^(٢٠).

وفي نص آخر: (إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ وَخَفَّتْ
أَمَانَتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا - وَشَبَّكَ بَيْنَ أَنْأَمِلَهُ - فَالْزَمْ بَيْتَكَ وَأَمْلِكْ
عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ أَمْرِ
نَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَةِ)^(٢١).

وفي خبر آخر: (سَتَكُونُ فِتْنُ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ،
وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي.
مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ. فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعِذْ
بِهِ)^(٢٢)، أي بمقدار ما تكون سلبياً بمقدار ما تضمن النجاة.

نعم هكذا أرادوا تصوير الأمر حتى تستقيم الأمور لمثل
يزيد بن معاوية من غير تشويش أو تعكير، ومن دون متاعب
ولا مشاكل، فإن من يموت خروجاً على يزيد بن معاوية ومات،
مات ميتة جاهلية! وقد نقض عهد الله وميثاقه!

وكان جانباً مهماً من خطابات الإمام الحسين عليه السلام قد عمل

على تعرية هذا الفساد والإفساد الذي نهض به وعاظ السلاطين والمتضمن في قوله الذي أطلقه في مسيره إلى كربلاء كما جاء في تاريخ الطبري: (قام حسين عليه السلام بذى حُسم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنه قد نزل من الأمر ما قد ترون وإن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت جداء فلم يبق منها إلا صباغة كصباغة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الويل. ألا ترون أن الحق لا يعمل به وأن الباطل لا يتناهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله محققاً فاني لا أرى الموت إلا شهادة ولا الحياة مع الظالمين إلا برماً)^(٢٣).

وبحسب بعض الباحثين فإن من الآثار المباركة للنهضة الحسينية أن التوجه العام للناس نحو علماء الدين ما عاد يتوجه نحو وعاظ السلاطين ومن يدور في فلك البلاط الأموي وولاتهم، فقد كشفت النهضة الحسينية زيف معدنهم وعزّتهم أمام الجماهير المنخدعة بهم.



المصادر والتعليقات الختامية:

- (١) التوبة: ٧١ .
- (٢) المجلسي: بحار الأنوار - ج ٧٢ - ص ٣٨ .
- (٣) ابن أبي الدنيا: في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - ٨ .
- (٤) أحمد بن أعثم: الفتوح - ج ٥ - ص ٢٠ .
- (٥) مسند الربيع بن حبيب - ح ٨٣٠ .
- (٦) ابن كثير: الكامل في التاريخ - ج ٤ - ص ٤٨ .
- (٧) محسن الأمين: أعيان الشيعة - ج ١ - ص ٣٠١ .
- (٨) محمدي الريشهري: ميزان الحكمة - ج ٣ - ص ٢١٠١ .
- (٩) المجلسي: بحار الأنوار - ج ٢ - ص ٥٨ - ح ٣٨ .
- (١٠) المتقي الهندي: كنز العمال - ح ٢٩٠٨٤ .
- (١١) المجلسي: بحار الأنوار - ج ٧٤ - ص ٣٥١ .
- (١٢) الزمر: ٩ .
- (١٣) الزمر: ١٢ .
- (١٤) المجلسي: بحار الأنوار - ج ٢٢ - ص ٤٦٧ .
- (١٥) الأعراف: ١٧٥-١٧٦ .
- (١٦) مريم: ٥-٦ .
- (١٧) الحج: ٤٠-٤١ .
- (١٨) نقلاً عن موقع: alwefaq.net .
- (١٩) المجلسي: بحار الأنوار - ج ٤٤ - ص ٣٨٣ .
- (٢٠) جلال الدين السيوطي: جامع الأحاديث - ح ٢٣٣٣ .
- (٢١) ن.م. - ح ١٩٩٠ .
- (٢٢) البخاري: الجامع الصحيح - ح ٦٦٧٠ .
- (٢٣) الطبري: تاريخ الأمم والملوك - ج ٣ - ص ٣٠٧ .

المُخْصَاءُ عَلَى الْمُسْذِينَ

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١).

من أهم وسائل اقتلاع الفساد هي معاقبة المفسدين دون مبالاة وتأخير، لاسيما رؤوس الفساد، وأشدهم تأثيراً في هذا الإطار، وذلك بهدف منع حركة الفساد من أن تتوسع وتمتد من خلاله، أو لمنع معاودة رؤوس الفساد تنظيم صفوفهم بعد إقصائهم.

ولنلاحظ الخبر التالي المروي عن علي عليه السلام كما في البحار:
 (لَمَّا سُئِلَ عَنْ أَحْوَالِ الْعَامَّةِ: إِنَّمَا هِيَ مِنْ فَسَادِ الْخَاصَّةِ، وَإِنَّمَا
 الْخَاصَّةُ لِيَقْسَمُونَ عَلَى خَمْسٍ: الْعُلَمَاءُ وَهُمْ الْأَدْلَاءُ عَلَى اللَّهِ،
 وَالزَّهَادُ وَهُمْ الطَّرِيقُ إِلَى اللَّهِ، وَالتَّجَارُ وَهُمْ أَمْنَاءُ اللَّهِ، وَالغَزَاةُ وَهُمْ
 أَنْصَارُ دِينِ اللَّهِ، وَالْحُكَّامُ وَهُمْ رِعَاةُ خَلْقِ اللَّهِ. فَإِذَا كَانَ الْعَالَمُ
 طَمَاعًا وَلِلْمَالِ جَمَاعًا فَبِمَنْ يُسْتَدَلُّ؟ وَإِذَا كَانَ الزَّاهِدُ رَاغِبًا وَلِمَا
 فِي أَيْدِي النَّاسِ طَالِبًا فَبِمَنْ يُقْتَدَى؟ وَإِذَا كَانَ التَّاجِرُ خَائِنًا
 وَلِلزَّكَاةِ مَانِعًا فَبِمَنْ يُسْتَوْثَقُ؟ وَإِذَا كَانَ الْغَازِي مُرَائِيًا وَلِلْكَسْبِ
 نَازِرًا فَبِمَنْ يُذَبُّ عَنْ الْمُسْلِمِينَ؟ وَإِذَا كَانَ الْحَاكِمُ ظَالِمًا وَفِي
 الْأَحْكَامِ جَائِرًا فَبِمَنْ يُنَصَرُ الْمَظْلُومُ عَلَى الظَّالِمِ؟ فَوَاللَّهِ مَا
 أَتَلَفَ النَّاسَ إِلَّا الْعُلَمَاءُ الطَّمَاعُونَ، وَالزَّهَادُ الرَّاغِبُونَ، وَالتَّجَارُ
 الْخَائِنُونَ، وَالغَزَاةُ الْمُرَاوُونَ، وَالْحُكَّامُ الْجَائِرُونَ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ).

فساد الطبقة المسؤولة عن الجانب التشريعي والقضائي
 (العلماء)، والجانب الوعظي (الزهاد)، والجانب الاقتصادي
 (التجار)، والجانب الأمني (الغزاة)، والجانب السياسي
 والإداري (الحكام)، يؤدي إلى فساد عامة الناس، وصلاحيهم

سيؤدي إلى صلاح الناس، ولذا فهم لا يستون مع غيرهم في تحمّل التبعات بلحاظ قوة التأثير، ولذا فالحمل والوزر عليهم أكبر، وإنزال العقوبة بهم بشكل صارم ومحكم وسريع أوقع في سير عجلة الإصلاح، وتجفيف منابع الإفساد.

بل حتى نوعية العقوبة تحمل صورة عنيفة جداً مقارنة بسائر العقوبات المقررة في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١).

✽ الثورات المعاصرة وعودة المفسدين:

ولنلاحظ الواقع فيما شهدناه من ثورات أو تبدلات على الساحة السياسية في المنطقة، كيف أن الأمور تتعقد أمام الراغبين في إحداث التغيير وإجراء حزمة الإصلاحات التي يبشرون بها عندما لم يحسموا أمر محاكمة رؤوس الفساد ومعاقبتهم، وحولوها إلى ورقة للمساومة تارة، أو أرادوا بها إرسال رسائل تطمين إلى المجتمع الدولي حول حضارية التعامل مع أركان الفساد تارة أخرى، أو لأي سبب آخر.

فما دامت تلك الرؤوس باقية، فإن أمل أتباعهم والمستفيدين من فتات موائدهم سيبقى حياً، وسيعملون على تنظيم صفوفهم للقيام بما يُعرف بالثورة المضادة، أو للعبث الأمني، أو للتغلغل في أوصال الدولة الجديدة وإعادة الفساد بعناوين ووجوه جديدة.

إن ملاحقة المفسدين، وكشف خدعهم وفضح خططهم والتصدي لهم تعد واحدة من أهم مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلك فإن على المصلحين أن يتحركوا دائماً لمواجهة الفساد الأخلاقي والفساد السياسي والفساد المالي وما إلى ذلك، بما يعيد الثقة للناس بإمكان وصول خطط الصلاح والإصلاح إلى الأهداف المرسومة.

وواحدة من المشكلات الكبرى التي حاصرت واقعنا الإسلامي والعربي وأجهضت حركة الإصلاح فيه، تتمثل في هذا التوافق الضمني على السكوت أمام الفساد، لاسيما أمام عليّة القوم.

ولذا حذر الإمام علي عليه السلام من إحاطة مستشاري ومعاوني الحكم الفاسد بالحاكم الجديد وعدم إقصائهم، ففي كتابه إلى

مالك الأشر لما ولاه مصر: (شَرُّ وُزَرَائِكَ مَنْ كَانَ لِلأَشْرَارِ قَبْلَكَ وَزِيْرًا، وَمَنْ شَرَكَهُمْ فِي الْإِثَامِ، فَلَا يَكُونَنَّ لَكَ بَطَانَةً فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْإِثْمَةِ، وَإِخْوَانُ الظُّلْمَةِ، وَأَنْتَ وَاجِدٌ مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ مِمَّنْ لَهُ مِثْلُ أَرَائِهِمْ وَنَفَاذِهِمْ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَصَارِهِمْ وَأَوْزَارِهِمْ وَأَثَامِهِمْ، مِمَّنْ لَمْ يُعَاوَنْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ، وَلَا أَثِمًا عَلَى إِثْمِهِ، أُولَئِكَ أَخْفُ عَلَيْكَ مَوْؤَنَةٌ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةٌ، وَأَخْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا، وَأَقْلُ لَغَيْرِكَ إِفَاءً، فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لَخَلَوَاتِكَ وَحَفَلَاتِكَ، ثُمَّ لِيَكُنْ أَثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ بِمُرِّ الْحَقِّ لَكَ، وَأَقْلَهُهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لَأَوْلِيَائِهِ، وَأَقِعَا ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ) ^(٣).

❁ الإمام علي في مواجهة المفسدين:

وقد يقول قائل: فلمَ لم يعاقب الإمام عليه السلام رؤوس الفساد وقد جاء على أثر ثورة ضد سياسات الخليفة عثمان ومن ثم قتله، والتداعي إلى علي عليه السلام لاستلام الحكم أملاً في النهوض بعملية إصلاحية كبرى تعيد الأمور إلى ما كانت عليه على عهد النبي صلى الله عليه وآله؟ فلو أنه قام بذلك، لربما لم يقوموا بالحركة المضادة كما جرى في معركة صفين.

والجواب عن ذلك أن الإمام عليه السلام اتخذ إجراء عزل الولاة الفاسدين بشكل سريع، وقد هربوا إلى الشام وإلى مناطق أخرى خوفاً من العقوبة، ولم تسمح الظروف بأكثر من ذلك، لاسيما وقد انتقضت عليه الأمور بسرعة من خلال أحداث حرب البصرة، ثم صفين.

وقد بذل الإمام عليه السلام أقصى جهده في إرجاع الحقوق إلى أصحابها، وإعادة الأمور إلى نصابها المتناسب مع التشريعات والعدالة الاجتماعية، والحسم في هذا الأمر، وهو يمثل عاملاً آخر مهماً في مواجهة الفساد وإصلاح الوضع.

وفي الخطبة التي ألقاها عقب البيعة له ما يبين سياسته في عدم المداهنة في هذا الأمر، قال: (أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ لِي مَا لَكُمْ وَعَلَيَّ مَا عَلَيْكُمْ، وَإِنِّي حَامِلُكُمْ عَلَى مَنْهَجِ نَبِيِّكُمْ وَمَنْفَذُ فَيْكُمْ مَا أُمِرْتُ بِهِ، أَلَا إِنَّ كُلَّ قِطْعَةٍ أَقْطَعَهَا عُثْمَانُ، وَكُلِّ مَالٍ أَعْطَاهُ مِنْ مَالِ اللَّهِ، فَهُوَ مَرْدُودٌ فِي بَيْتِ الْمَالِ، فَإِنَّ الْحَقَّ لَا يُبْطَلُهُ شَيْءٌ وَلَوْ وَجَدْتُهُ قَدْ تَزَوَّجَ بِهِ النِّسَاءَ وَمَلَكَ الْإِمَاءَ وَفَرَّقَ فِي الْبُلْدَانِ لَرَدَدْتُهُ، فَإِنَّ الْعَدْلَ سَعَةٌ، وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْحَقُّ فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضِيقُ، أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا لَا يَقُولَنَّ رِجَالٌ

مِنْكُمْ غَدًا قَدْ غَمَرَتْهُمْ الدُّنْيَا فامْتَلَكُوا الْعَقَارَ وَفَجَّرُوا الْأَنْهَارَ
وَرَكَّبُوا الْخَيْلَ وَاتَّخَذُوا الْوَصَائِفَ الْمُرَقَّعةَ إِذَا مَا مَنَعْتَهُمْ مَا كَانُوا
يَخْوضُونَ فِيهِ وَأَصْرَتْهُمْ إِلَى حُقُوقِهِمُ الَّتِي يَعْلَمُونَ حَرَمَنَا ابْنُ
أَبِي طَالِبٍ حُقُوقَنَا. أَلَا وَآيِمًا رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ مِنْ
أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرَى أَنَّ الْفَضْلَ لَهُ عَلَى سِوَاهُ بَصُحْبَتِهِ
فَإِنَّ الْفَضْلَ غَدًا عِنْدَ اللَّهِ وَثَوَابُهُ وَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، أَلَا وَآيِمًا رَجُلٌ
اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فَصَدَّقَ مِلَّتَنَا وَدَخَلَ دِينَنَا وَاسْتَقْبَلَ قِبَلَتَنَا
فَقَدْ اسْتَوْجَبَ حُقُوقَ الْإِسْلَامِ وَحُدُودَهُ. فَانْتُمْ عِبَادُ اللَّهِ، وَالْمَالُ
مَالُ اللَّهِ، يُقَسَّمُ بَيْنَكُمْ بِالسَّوِيَّةِ وَلَا فَضْلَ فِيهِ لِأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ
وَلِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَحْسَنُ الْجَزَاءِ^(٤).

وتمر الأيام ولا يرتاح البعض لهذه السياسة، وتبدأ رؤوس
الفساد والمنتفعون من السياسة الطبقية التي ألفوها وناسبتهم
بالتذمر من هذا الوضع، وتظهر بوادر حركتهم التمردية إلى
المستوى الذي يصرح فيه الإمام بقوله: (مَالِي وَلِقْرِيش؟! لَقَدْ
قَتَلْتُهُمْ كَافِرِينَ، وَلَأَقْتُلُهُمْ مَفْتُونِينَ، وَاللَّهِ لَأُبْقِرَنَّ الْبَاطِلَ حَتَّى
يَظْهَرَ الْحَقُّ مِنْ خَاصَرَتِهِ، فَقُلْ لِقْرِيشٍ فَلْتَضِجْ ضَجِيجَهَا)^(٥).

ولعلمهم وسطوا جماعة لتغيير قناعات علي عليه السلام ، أو أن بعضاً

من المخلصين لعلي عليه السلام توجَّسوا خوفاً من حركتهم، ولذا (دَخَلَ عَلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَوْمًا فَقَالُوا لَهُ: لَوْ أُعْطِيتَ هَذِهِ الْأَمْوَالُ، وَوَصَلَتْ بِهَا هَؤُلَاءِ الْأَشْرَافُ، وَمَنْ تَخَافُ فِرَاقَهُ، حَتَّى إِذَا اسْتَتَبَّ لَكَ مَا تُرِيدُهُ عُدْتَ إِلَى مَا عَوَّدَكَ اللَّهُ مِنَ الْعَدْلِ فِي الرَّعِيَّةِ وَالْقِسْمَةِ بِالسَّوِيَّةِ. فَقَالَ أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالْجَوْرِ فَيَمُنَّ وَلِيَّتْ عَلَيْهِمْ مَنْ أَهْلُ الْإِسْلَامِ؟! وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ. لَوْ كَانَ هَذَا الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ فِيهِ، كَيْفَ وَإِنَّمَا هِيَ أَمْوَالُهُمْ؟) ^(٦).

والمسألة الأخرى أن الإمام عليه السلام كان حساساً تجاه أية بوادر لعودة المفسدين إلى الواجهة من جديد، ولذا يسارع في توجيه رسالة قاسية اللهجة لواليه على البصرة الصحابي الجليل عثمان بن حنيف الأنصاري عندما لم يصدر منه أكثر من أن يقبل دعوة أحد شخصياتها على مائدة طعام، ولكن الحالة الرقابية التي فرضها الإمام على الولاة فرضت أن يطلع على هذا التصرف على الرغم من بعد المسافة، وبدائية وسائل الاتصال حينئذ... ويأتي ذلك من الإمام خوفاً من أن تكون هذه بداية شراء ذمة الوالي، أو خضوعه لأصحاب المصالح من باب أن الناس عبيد الإحسان.

والرسالة بهذا المضمون كما في نهج البلاغة: (أَمَّا بَعْدُ، يَابْنَ حَنِيفَ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِنْ فِتْيَةِ أَهْلِ الْبَصْرَةِ دَعَاكَ إِلَى مَادُبَةٍ، فَأَسْرَعْتَ إِلَيْهَا، تُسْتَطَابُ لَكَ الْأَلْوَانُ، وَتُنْقَلُ إِلَيْكَ الْجِفَانُ، وَمَا ظَنَنْتُ أَنَّكَ تُجِيبُ إِلَى طَعَامِ قَوْمٍ، عَائِلُهُمْ مَجْفُوءٌ، وَغَنِيَّهُمْ مَدْعُوءٌ. فَانْظُرْ إِلَى مَا تَقْضِمُهُ مِنْ هَذَا الْمَقْضَمِ، فَمَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ عِلْمُهُ فَالْفِظُهُ، وَمَا أَيْقَنْتَ بِطَيْبِ وُجُوهِهِ فَلَنْ مِنْهُ) ^(٧).

ألم يكن بمقدور الإمام أن يبلغه بصورة سرية بهذا الأمر حفظاً لكرامته وشخصيته ومكانته؟ حتماً أن الأمر كان ممكناً، ولكن من الذي أوصل إلينا الخبر وتناقلته الكتب عبر التاريخ حتى صار بأيدينا موضع عبرة؟ من الواضح أنه توجد إرادة بأن يقدم هذا الأمر علانية لتبقى العبرة حاضرة.

ولو عدنا إلى نهج البلاغة سنجد أن المشهد يتكرر في أكثر من موقع ومع أكثر من مسؤول، ففي قسم الكتب منه هكذا: (روي أن شريح بن الحارث قاضي أمير المؤمنين عليه السلام اشترى على عهده داراً بثمانين ديناراً، فبلغه عليه السلام ذلك، فاستدعى شريحاً، وقال له: بَلَغَنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً. فقال شريح: قد كان ذلك يا

أمير المؤمنين. قال: فنظر إليه عليه السلام نظر مغضب ثم قال له: يَا شَرِيحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيْتِكَ، حَتَّى يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصًا، وَيُسَلِّمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصًا. فَانْظُرْ يَا شَرِيحُ لَا تَكُونُ ابْتَعَتْ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ!.. (٨).

✽ الفساد يطل من جديد:

ولكن يبدو أن الفساد المالي الذي سبق وترسّخ قبل عهد الإمام عليه السلام، لا على مستوى الفعل فقط، بل وعلى مستوى التنظير والتبرير أيضاً، بدأ يطلُّ برأسه من جديد!

فما ذكرناه من قضيتي ابن حنيف وشريح القاضي كانت هي البداية، إذ أنه ومع انتهاء معركة صفين، وعدم حسم المعركة، ومع دخول الإمام علي عليه السلام في صراع مع انشقاق داخلي تمثل في الخوارج، ظهرت بوادر الانفلات الأمني والسياسي والمالي، ومنبع ذلك كله هو الانهيار القيمي الموروث من العقود الماضية التي فرزت الطبقة والتحزب وحب الدنيا.

ثم جاءت غارات جند معاوية على المناطق التابعة لحكم

الإمام علي عليه السلام لتساعد على صور الانفلات تلك، فقد كانت غارات مؤثرة من حيث نشر الرعب، والإخلال بموازن القوى بين الطرفين، واقتطاع مساحات واسعة من المناطق الخاضعة لحكم الإمام، بل وحتى استمالة القبائل والمسؤولين المواليين لحكم الإمام علي، الأمر الذي شجّع بعضهم على نهب بيت المال وهو في موقع المسؤولية.

وفي طول مواجهة الإمام لحالة الفلتان هذه ميدانياً، عمل على المعالجة الفكرية والإيمانية والروحية للمشكلة، وهذا نلاحظه بوضوح في الكتب التي كان يرسلها، وفي الخطب التي كان يعلق من خلالها على الأوضاع، أو تصدر من خلالها الأوامر بالتحرك لمعالجة المشكلات. ولنأخذ بعض الأمثلة.

مصقلة بن هُبيرة الشيباني كان عامل الإمام على أردشير خُرّة (قريبة من مدينة بوشهر الإيرانية على الخليج العربي)، وجّه إليه الإمام رسالة شديدة اللهجة تتعلق بخروجه على قاعدة توزيع الفئ بالسيوية بين المسلمين، وهي القاعدة التي أعاد الإمام العمل بها بعد قتل الخليفة عثمان، فيما كانت السياسة السابقة في التفاضل قد خلقت مشكلات عدة منذ عهد

الخليفة عمر، واستمرت آثارها التي عانى منها الإمام علي أشد المعاناة. فكتب إليه كما في نهج البلاغة قائلاً: (بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٌ إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ إِلَهَكَ، وَأَغْضَبْتَ إِمَامَكَ: أَنْكَ تَقْسِمُ فِيَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي حَازَتْهُ رِمَاحُهُمْ وَخِيُولُهُمْ، وَأُرِيقَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ، فَيَمَنُ اعْتَمَاكَ «اخْتَارَكَ سَيِّدًا وَقَائِدًا» مِنْ أَعْرَابِ قَوْمِكَ. فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ، لَئِنْ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا لَتَجِدَنَّ بَكَ عَلَيَّ هَوَانًا، وَلَتَخَفَنَّ عِنْدِي مِيزَانًا، فَلَا تَسْتَهِنُ بِحَقِّ رَبِّكَ، وَلَا تُصْلِحَ دُنْيَاكَ بِمَحْقِ دِينِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. أَلَا وَإِنْ حَقَّ مِنْ قَبْلِكَ وَقَبْلُنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي قِسْمَةِ هَذَا الْفَيْءِ سَوَاءٌ، يَرِدُونَ عِنْدِي عَلَيْهِ، يَصْدُرُونَ عَنْهُ، وَالسَّلَامُ) ^(٩). ولنلاحظ أن ما قام به مصقلة هو ذات الأمر الذي كان يعيب به الإمام علي عليه السلام على عثمان وولاته في سياستهم تجاه الحكم وبيت المال.

ولست أعلم بالتحديد ما الذي توصل إليه الإمام عليه السلام في تثبته من هذه الوشاية، إلا أن الرجل ذاته وقع في مطب آخر أشد من الأول، وذلك في قصة طويلة ذكرها المؤرخون كالطبري وابن أبي الحديد، وفي خواتيمها أن مصقلة اشترى

خمسمائة أسير من ماله كانوا من ذراري قبيلة عربية نصرانية أسلمت ثم ارتدت وحاربت على عهد الإمام علي، وقد اشتراهم مصقلة - حسب ادعائه - بخمسمائة ألف درهم ليحررهم من الأسر، فاستحسن الإمام تصرفه.. ولما كان يُفترض به أن يرسل بالمال إلى الإمام في الكوفة، وتباطأ، بعث إليه الإمام كتاباً يحثه على ذلك، فأرسل مائتي ألف درهم فقط، ثم اختار في النهاية أن يهرب ويلحق بمعاوية!

وفي نهج البلاغة كلمة للإمام عليه السلام يبين فيها ردة فعله على هذا الموقف الغريب، قال: (قَبَّحَ اللَّهُ مَصْقَلَةَ! فَعَلَ فَعْلَ السَّادَةِ، وَفَرَّ فَرَارَ الْعَبِيدِ! فَمَا أَنْطَقَ مَادِحَهُ حَتَّى أَسْكُتَهُ، وَلَا صَدَّقَ وَاصِفَهُ حَتَّى بَكَتَهُ «عَنْفَهُ»، وَلَوْ أَقَامَ لَأَخَذْنَا مَيْسُورَهُ، وَانْتَظَرْنَا بِمَالِهِ وَفُورَهُ) ^(١٠).

✽ الهروب الكبير:

ولم يكن هو الوحيد الذي يقع في أحضان معاوية هرباً من عدالة الإمام وشدته في الحق. والنص التالي يبين هذا المطلب، ففي نهج البلاغة: (ومن كتاب له عليه السلام إلى سهل ابن حنيف الأنصاري وهو عامله على المدينة، في معنى قوم من أهلها لحقوا

بمعاوية: أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِمَّنْ قَبْلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَا تَأْسَفْ عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدَدِهِمْ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدَدِهِمْ، فَكَفَى لَهُمْ غِيًّا، وَلَكَ مِنْهُمْ شَافِيًّا، فَرَارُهُمْ مِنَ الْهُدَى وَالْحَقِّ، وَإِيضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ، وَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا، قَدْ عَرَفُوا الْعَدْلَ وَرَأَوْهُ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ، وَعَلِمُوا أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أَسْوَةٌ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ، فَبَعْدًا لَهُمْ وَسُحْقًا!! إِنَّهُمْ - وَاللَّهِ - لَمْ يَنْفَرُوا مِنْ جَوْرٍ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِعَدْلٍ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُدْلِلَ اللَّهُ لَنَا صَعْبَهُ، يُسَهِّلَ لَنَا حَزَنَهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ^(١١).

لقد عشقوا الدنيا، ووجدوا أن موازين القوى باتت تصب في صالح معاوية، ولذا اختاروا الالتحاق بمن يقدم لهم هذه الدنيا ويلبي لهم مطالبهم غير المشروعة، وهو ما شخصه الإمام بوضوح حيث قال: (حَتَّى يَظُنَّ الظَّانُّ أَنَّ الدُّنْيَا مَعْقُولَةٌ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ، تَمْنَحُهُمْ دَرَهَا، وَتُورِدُهُمْ صَفْوَهَا، وَلَا يُرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَوْطُهَا وَلَا سَيْفُهَا، وَكَذَبَ الظَّانُّ لَذَلِكَ. بَلْ هِيَ مَجَّةٌ مِنْ لَذِيذِ الْعَيْشِ يَتَطَعَمُونَهَا بِرُهَةٍ، ثُمَّ يَلْفِظُونَهَا جُمْلَةً!)^(١٢).

ولكن هل سيعود عليهم اختيارهم هذا بالخير؟ لن يتجاوز

تلتذهم بما أقبلوا عليه من موائد معاوية الدسمة سوى فترة، ثم سترحف عليهم ويلات الحكم الأموي وتهجم عليهم الفتن كقطع الليل المظلم، وهو ما حذرهم منه الإمام عليه السلام قائلاً: (وَاللَّهِ لَا يَزَالُونَ حَتَّى لَا يَدْعُوا لِلَّهِ مُحَرَّمًا إِلَّا اسْتَحْلَوْهُ، وَلَا عَقْدًا إِلَّا حَلَّوهُ، حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْتٌ مَدَرٌ وَلَا وَبَرٌ إِلَّا دَخَلَهُ ظُلْمُهُمْ وَنَبَأَ بِهِ سُوءُ رَعِيَّتِهِمْ، وَحَتَّى يَقُومَ الْبَاكِيانُ يَبْكِيانَ: بَاكٌ يَبْكِي لِدِينِهِ، وَبَاكٌ يَبْكِي لِدُنْيَاهُ، وَحَتَّى تَكُونَ نُصْرَةُ أَحَدِكُمْ مِنْ أَحَدِهِمْ كَنُصْرَةِ الْعَبْدِ مِنْ سَيِّدِهِ إِذَا شَهِدَ أَطَاعَهُ، وَإِذَا غَابَ اغْتَابَهُ) ^(١٣).

ويقول في موقع آخر: (فَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مَدَرٌ وَلَا وَبَرٌ إِلَّا وَأَدْخَلَهُ الظُّلْمَةُ تَرْحَةً «حزن»، وَأَوَّلِجُوا فِيهِ نَقْمَةً، فَيَوْمَئِذٍ لَا يَبْقَى لَهُمْ فِي السَّمَاءِ عَاذِرٌ، وَلَا فِي الْأَرْضِ نَاصِرٌ. أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرَدِهِ، وَسَيَنْتَقِمَ اللَّهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَا كَلَّا بِمَا كُلَّ، وَمَشْرَبًا بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ الْعَلَقَمِ، وَمَشَارِبِ الصَّبْرِ وَالْمَقْرِ، وَلِبَاسِ شَعَارِ الْخَوْفِ، وَدَثَارِ السَّيْفِ. وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الْخَطِيئَاتِ وَزَوَامِلُ الْإِثَامِ. فَأَقْسِمُ، ثُمَّ أَقْسِمُ، لَتَنْخَمَتْهَا أُمِّيَّةٌ مِنْ بَعْدِي كَمَا تَلْفُظُ النُّخَامَةُ، ثُمَّ لَا تَذُوقُهَا وَلَا تَطْعُمُ بِطَعْمِهَا أَبَدًا مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ «تعاقب الليل والنهار» ^(١٤)).

وأذكر هنا كيف أن المقبور صدام عمد إلى ذات السياسة قبيل حربه التي شنها على إيران، فأغدق على شعبه الهدايا والعطايا، ثم طالبهم بإرسال أبنائهم لحرب إيران ثمناً للنعيم القادم، فما لبث الأمر أن تحوّل إلى جحيم عاشه العراق في الحرب وبعد الحرب على مدى عقود من الزمن، ولم تنته آثاره حتى بعد هلاك الطاغية.

وهكذا نجد الإمام علي عليه السلام يوجه كتاباً إلى زياد بن أبيه وهو خليفة عامله عبد الله بن العباس على البصرة: (وَإِنِّي أَقْسِمُ بِاللّهِ قَسَمًا صَادِقًا، لَنْ بَلَّغْنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فِيءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئًا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا، لِأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شِدَّةَ تَدْعِكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَعِيلَ الْأَمْرِ، وَالسَّلَامُ) ^(١٥).

ويكتب كتاباً إلى بعض عماله: (أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَّغْنِي عَنْكَ أَمْرٌ، إِنْ كُنْتَ فَعَلْتَهُ فَقَدْ أَسْخَطْتَ رَبَّكَ، وَعَصَيْتَ إِمَامَكَ، وَأَخْزَيْتَ أَمَانَتَكَ. بَلَّغْنِي أَنَّكَ جَرَّدْتَ الْأَرْضَ «أَخَذْتَ كُلَّ شَيْءٍ» فَأَخَذْتَ مَا تَحْتَ قَدَمَيْكَ، وَأَكَلْتَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ، فَارْفَعْ إِلَيَّ حِسَابَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ حِسَابَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ حِسَابِ النَّاسِ، وَالسَّلَامُ) ^(١٦).

وتأتي الطامة الكبرى - إن صحّت - من أقرب الناس إليه،

من ابن عمه عبدالله بن عباس حال توليه أمور البصرة، وقيل عبيدالله بن عباس (ولا يصح إذ لم يكن والياً على البصرة). وقد اختلف المحققون في صحة ذلك لأسباب عدة، وقد أشار إلى بعضها ابن أبي الحديد وقال: (وقد أشكل عليّ أمر هذا الكتاب، فإن أنا كذبت النقل وقلت: هذا كلام موضوع على أمير المؤمنين عليه السلام خالفت الرواة، فإنهم قد أطبقوا على رواية هذا الكلام عنه، وقد كرّ في أكثر كتب السير. وإن صرفته إلى عبدالله بن عباس صدّني عنه ما أعلمه من ملازمته لطاعة أمير المؤمنين عليه السلام في حياته وبعض وفاته، وإن صرفته إلى غيره لم أعلم إلى من أصرفه من أهل أمير المؤمنين عليه السلام، والكلام يشعر بأن الرجل المخاطب من أهله وبني عمه، فأنا في هذا الموضوع من المتوقفين) ^(١٧).

وتعرض للقضية المرجع الراحل السيد أبو القاسم الخوئي في ترجمته لابن عباس في موسوعته معجم رجال الحديث، معتبراً أن الخبر لا يثبت أمام النقد، ولذا لم يصححه.

أما كتاب الإمام لابن عباس والمروي في نهج البلاغة، فهكذا: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي كُنْتُ أَشْرَكْتُكَ فِي أَمَانَتِي، وَجَعَلْتُكَ

شَعَارِي وَبَطَانَتِي، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِي رَجُلٌ أَوْثَقَ مِنْكَ فِي
نَفْسِي، لِمُؤَاسَاتِي وَمُوَازَرَتِي وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَيَّ. فَلَمَّا رَأَيْتَ الزَّمَانَ
عَلَى ابْنِ عَمِّكَ قَدْ كَلَبَ، وَالْعَدُوَّ قَدْ حَرَبَ، وَأَمَانَةَ النَّاسِ قَدْ
خَزَيْتَ، وَهَذِهِ الْأُمَّةُ قَدْ فَتِنَتْ وَشَغَرَتْ، قَلْبْتَ لِابْنِ عَمِّكَ ظَهَرَ
الْمَجَنِّ، فَفَارَقْتَهُ مَعَ الْمُفَارِقِينَ، وَخَذَلْتَهُ مَعَ الْخَاذِلِينَ، وَخُنْتَهُ
مَعَ الْخَائِنِينَ، فَلَا ابْنَ عَمِّكَ أَسَيْتَ، وَلَا الْأَمَانَةَ أَدَيْتَ. وَكَأَنَّكَ
لَمْ تَكُنْ اللَّهُ تَرِيدُ بِجِهَادِكَ، وَكَأَنَّكَ لَمْ تَكُنْ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّكَ،
وَكَأَنَّكَ إِنَّمَا كُنْتَ تَكِيدُ هَذِهِ الْأُمَّةَ عَنْ دُنْيَاهُمْ، وَتَتَوَيَّ غُرَّتَهُمْ عَنْ
فَيْتِهِمْ! فَلَمَّا أَمَكَّنْتَكَ الشَّدَّةُ فِي خِيَانَةِ الْأُمَّةِ، أَسْرَعْتَ الْكُرَّةَ،
وَعَاجَلْتَ الْوُثْبَةَ، وَاخْتَطَفْتَ مَا قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالِهِمُ الْمَصُونَةِ
لَارَامِلِهِمْ وَأَيَّتَامِهِمْ، اخْتَطَفَ الذُّبُّ الْأَزْلَ دَامِيَةَ الْمُعْزَى
الْكَسِيرَةِ، فَحَمَلْتَهُ إِلَى الْحِجَازِ رَحِيبَ الصَّدْرِ بِحِمْلِهِ، غَيْرَ مُتَأَثِّمٍ
مِنْ أَخْذِهِ، كَأَنَّكَ - لَا أَبَا لَغَيْرِكَ - حَدَرْتَ إِلَى أَهْلِكَ تُرَاثَكَ
مِنْ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، فَسُبْحَانَ اللَّهِ! أَمَا تُؤْمِنُ بِالْمَعَادِ؟ أَوْ مَا تَخَافُ
نَقَاشَ الْحَسَابِ! أَيُّهَا الْمَعْدُودُ - كَانَ - عِنْدَنَا مِنْ ذَوِي الْأَلْبَابِ،
كَيْفَ تُسَيِّغُ شَرَابًا وَطَعَامًا، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ تَأْكُلُ حَرَامًا، وَتَشْرَبُ
حَرَامًا، وَتَبْتَاعُ الْأَمَاءَ وَتَنْكِحُ النِّسَاءَ مِنْ مَالِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ

وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ، الَّذِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْأَمْوَالُ،
وَأَحْرَزَ بِهِمْ هَذِهِ الْبِلَادَ؟! فَاتَّقِ اللَّهَ، وَارْجِعْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ
أَمْوَالَهُمْ، فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ ثُمَّ أَمَكَّنِي اللَّهُ مِنْكَ لَا عُذْرَ إِلَى
اللَّهِ فِيكَ، وَلَا ضَرْبَكَ بِسَيْفِي الَّذِي مَا ضَرَبْتُ بِهِ أَحَدًا إِلَّا دَخَلَ
النَّارَ! وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ فَعَلَا مِثْلَ الَّذِي فَعَلْتَ، مَا
كَانَتْ لَهُمَا عِنْدِي هَوَادَةٌ، وَلَا ظَفَرًا مَنِيَّ بِإِرَادَةٍ، حَتَّى أَخَذَ الْحَقُّ
مِنْهُمَا، وَأَزِيحَ الْبَاطِلَ عَنْ مَظْلَمَتَيْهِمَا. وَأَقْسِمُ بِاللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
مَا يَسْرُتْنِي أَنْ مَا أَخَذْتَهُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَلَالٌ لِي، أَتْرُكُهُ مِيرَاثًا لِمَنْ
بَعْدِي، فَضَحَّ رُوبِدًا، فَكَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْمَدَى، وَدُفِنْتَ تَحْتَ
الثَّرَى، وَعُرِضْتُ عَلَيْكَ أَعْمَالُكَ بِالْمَحَلِّ الَّذِي يُنَادِي الظَّالِمُ
فِيهِ بِالْحَسْرَةِ، وَيَتَمَنَّى الْمُضِيعُ الرَّجْعَةَ، وَلَا تَحِينَ مَنَاصِ
وَالسَّلَامُ) (١٨).

وجاء جواب ابن عباس كالتالي: (أما بعد، فقد أتاني كتابك
تعظم علي ما أصبت من بيت مال البصرة، ولعمري إن حقي
في بيت المال أكثر مما أخذت، والسلام) (١٩).

قال أبوحيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ) في كتابه (البصائر
والذخائر): (فكتب إليه علي: أما بعد، فإن العجب أن تزين

لك نفسك أن لك في بيت مال الله عز وجل من الحق أكثر مما لرجل من المسلمين، فقد أفلحت إن كان تمنيك الباطل وادعاؤك ما لا يكون ينجيك من المآثم، أو يحل لك ما حرم الله عليك، فلعمري إنك لأنت المهتدي السعيد إذن. قد بلغني أنك اتخذت مكة وطناً، وضربت بها عطناً، تشتري بها مولدات مكة والمدينة والطائف، تختارهن على عينك، وتعطي فيهن مال غيرك؛ وإني أقسم بالله ربي وربك ورب العزة رب العالمين، ما أحب أن لي ما أخذت من أموالهم حلالاً أدعه لعقبى ميراثاً، فالعجب لا غتباطك به تأكله حراماً؛ فضح رويداً، فكأن قد بلغت المدى، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي ينادي فيه المغتر بالحسرة، ويتمنى المضيع التوبة، والظالم الرجعة، فذلك وما ذلك، ولات حين مناص، والسلام). فكتب إليه ابن عباس: (أما بعد، فإنك أكثرت علي وإني والله - عز وجل - لأن ألقى الله بجميع ما في الأرض من ذهبها وفضتها وكل ما فيها أحب إلي من أن ألقاه بدم امرئ مسلم، والسلام)^(٢٠).

أما شارح نهج البلاغة ميرزا حبيب الله الخوئي (منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة) فقد صحح الخبر وبرر موقف ابن عباس

تبريراً غريباً، قال: (ومما يوجب الأسف المحرق هذا الكتاب المخاطب به أحد خواصه من بني عشيرته، والأكثر على أنه عبدالله بن عباس، فالظاهر أنه لما كتب ﷺ إليه كتابه بعد مقتل محمد بن أبي بكر، وقد مر أنفاً أيس ابن عباس من إدامة حكومته العادلة، و علم أن الحكومة تقع في يد أعدائه و أعداء بني هاشم، وأقل ما ينتقمون منهم منعهم عن حقوقهم و إيقاعهم في ضيق المعاش و ضنك العيش، فادخر من بيت مال البصرة مقادير يظهر من كتابه ﷺ أنها كثيرة تسع لابتياح العقار في مكة والمدينة والطائف وابتياح العبيد ونكاح الأزواج. و قد أثر عمله هذا في قلبه الشريف حيث يتوجه إلى تأمين معاش عشرات الألوف من الأرامل و الأيتام اللاتي قتل أزواجهن وأباؤهم في معارك الجمل وصفين و لا كفيل لهن في معاشهن، و كان ما يجمع في بيت مال البصرة مبلغاً كثيراً يسد كثيراً من حاجته في هذه الأرامل والأيتام، فالتهب قلبه الشريف من هذا الاختطاف والاختلاس الذي ارتكبه مثل ابن عباس أو من يقارنه أو يقاربه من أهله و عشيرته، فرماه من لسانه الشريف بسهام ما اغرزاها في القلب و سيوف ما أقطعها للوتين. و كان ابن عباس يتوجه إلى

حالة علي الروحية فيبادر إلى جوابه بأخصر عبارة و يشير إلى عذره في خيانتة^(٢١).

وليست هذه هي آخر حلقة في سلسلة التلاعب في بيت مال المسلمين، فقد أرسل الإمام كتاباً إلى المنذر بن الجارود العَبْدِي وقد خان في بعض ما ولاه من أعماله، ففي نهج البلاغة: (أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَبِيكَ غَرَّنِي مِنْكَ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُقِّيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدْعُ لِهَوَاكَ انْقِيَادًا، وَلَا تُبْقِي لِأَخْرَجِكَ عِتَادًا، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ أَخْرَجِكَ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ. وَلَئِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقًّا، لَجَمَلُ أَهْلِكَ وَشَسْعُ نَعْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ، وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرٌ، أَوْ يَنْفَذَ بِهِ أَمْرٌ، أَوْ يُعْلَى لَهُ قَدْرٌ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَةٍ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى خِيَانَةٍ. فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ)^(٢٢).

علماً بأن المنذر هذا هو أحد الخمسة الذين أرسل إليهم الإمام الحسين عليه السلام في البصرة رسالته التي ضمنها طلب نصرته، فقام المنذر وسلم رسول الإمام الحسين - سليمان أبو أو ابن رزين - لعبيد الله بن زياد والي البصرة من قبل

يزيد بن معاوية وأطلعه على مضمونها، فقتل عبيد الله سليمان، فكان أول شهيد في ركب النهضة الحسينية!

إن من يقرأ تلك الرسائل، والخطب العديدة التي تضمنت ذم الدنيا، والتخويف من الركون إليها، والحث على الزهد، وتذكر الموت والحساب والعقاب والثواب، يدرك حجم المشكلة الإيمانية والروحية التي كان يعاني منها المجتمع حينئذ، المجتمع الذي حذره الإمام عليه السلام في بدء لجوئهم إليه كي يستلم مقاليد الحكم بأنهم لن يكونوا قادرين على تحمل سياساته العادلة، لأن الفساد قد نخر إلى العظم، فانقلبت الموازين، وضاعت القيم، وصارت الدنيا في عناوينها المختلفة من حكم وجاه ومال ونفوذ هي غايتهم، متناسين مبادئ دينهم ومصير في آخرتهم.. ولذا قال: (دَعُونِي وَالتَّمَسُّوا غَيْرِي، فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجْوهٌ وَأَلْوَانٌ، لَا تَقُومُ لَهُ الْقُلُوبُ، وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ، وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَغَامَتْ، وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَكَثَّرَتْ. وَعَلِّمُوا أَنِّي إِنْ أَجَبْتُكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَلَمْ أَضِغْ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتَبِ الْعَاتِبِ، وَإِنْ تَرَكَتُمُونِي فَإِنَّا كَأَحَدِكُمْ، وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَلِيَّتُمُوهُ أَمْرُكُمْ، وَأَنَا لَكُمْ وَزِيرًا، خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا!)^(٢٣).

وقد استفحل الأمر بعد ذلك في مديات أوسع حين استحكمت الأمور لبني أمية، فعاثوا في الأرض فساداً، في صور عديدة طرحنا بعض أمثلتها فيما سبق، الأمر الذي دفع الإمام الحسين عليه السلام إلى تقديم دمه ودم آلِه وأنصاره قرباناً لهز ضمائر الأمة التي يجب أن تنهض في مواجهة الفاسدين فتقتلعهم وتعاقبهم بعد أن تحاسبهم حساباً عسيراً، وبانتظار ذلك اليوم الذي لا تخفى فيه خافية: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ^(٢٤) و﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ ^(٢٥).



المصادر والتعليقات الختامية:

- (١) القصص: ٨٣ .
- (٢) المائدة: ٣٣ .
- (٣) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٥٣ .
- (٤) جورج جرداق: روائع نهج البلاغة - ص ٩٥-٩٦ .
- (٥) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ج ١ - ص ٢٣٣ .
- (٦) المجلسي: بحار الأنوار - ج ٧٥ - ص ٩٦ .
- (٧) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤٤ .
- (٨) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٣ .
- (٩) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤٣ .
- (١٠) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤٤ .
- (١١) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٧٠ .
- (١٢) نهج البلاغة: خ ٨٧ .
- (١٣) نهج البلاغة: خ ٩٧ .
- (١٤) نهج البلاغة: خ ١٥٧ .
- (١٥) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٢٠ .
- (١٦) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤٠ .
- (١٧) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة - ج ١٦ - ص ١٧٢ .
- (١٨) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٤١ .
- (١٩) المحمودي: نهج السعادة - ج ٥ - ص ٣٣١ .

- (٢٠) أبوحيان التوحيدي: البصائر والذخائر - ج ١ - ص ٩٥ .
- (٢١) ميرزا حبيب الله الخوئي: منهاج البراعة - ج ٢ - ص ٧٤ .
- (٢٢) نهج البلاغة: الكتاب رقم ٧١ .
- (٢٣) نهج البلاغة: خ ٩٢ .
- (٢٤) غافر: ١٦ .
- (٢٥) الفرقان: ٢٦ .



القيادة وثقافة الإصلاح

تحدثت فيما سبق عن دور القيادة في عملية الإصلاح، ولاشك أن عملية الإصلاح لا تتحقق من خلال وجود قيادة فقط، بل لابد من وجود عناصر أخرى، منها:

❖ ثقافة الإصلاح:

وهي قد تكون صادرة من نفس تلك القيادة، أو تساهم القيادة فيها، ومن غير هذه الثقافة ستكون عملية الإصلاح متعسرة إن

لم نقل غير ممكنة أصلاً، إذ كيف يمكن تصور الإصلاح في بيئة غير مدركة أصلاً لما ستُقدم عليه، ولماذا تُقدم عليه، وما أسباب الفساد، ومن يقف وراءه، وكيف تُحقق عملية الإصلاح. وتحكيم ثقافة الإصلاح يحتاج إلى عمل دؤوب ومتنوع، فمن شبه المستحيل التخلص دفعة واحدة من كل الترسبات الفكرية الفاسدة التي عملت البيئة التي يعيش فيها الإنسان على ترسيخها طوال عقود من الزمن، حتى تحول بعضها إلى مسلمات بديهية، أو إرث مقدّس غير قابل لإعادة التفكير فيه: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لْتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

ومن شبه المستحيل التخلص دفعة واحدة من مظاهر الفساد وأسبابه كالفضوى والتسيب واللامبالاة والرشوة والغش والخضوع للقوي وغيرها، وإبدالها بكل مظاهر الصلاح من قبيل النظام والتزام القانون من قبل الجميع وحرية الرأي والحفاظ على الممتلكات العامة وغيرها.

ولاحظ أن من عناوين الفساد ما يتداخل مع بعضه البعض، وأبسط مثال على ذلك التسيب، فهو في حد ذاته عنوان فساد

إداري، ويؤدي إلى عنوان فساد آخر هو الفوضى، كما يؤدي إلى تفشي الرشوة، وإضاعة الحقوق، إلخ.

كما أن تطبيق بعض عناوين الإصلاح سيتصادم مباشرة مع المصالح الشخصية أو الحزبية لنفس القيادات التي رفعت شعار الإصلاح وطالبت بتغيير الواقع الفاسد أو عملت عليه، الأمر الذي يدفعها للسعي لإعادة تلك المظاهر، ولو بتبريرات باردة، أو حتى بعناوين شرعية مفرّكة ومفصّلة على المقاس، من قبيل عنوان عدم ملكية الدولة لما تحت يديها، والتصرف بمجهول المالك مثلاً!

ولك أن تتخيل أن هؤلاء هم من يصلون إلى سدة الحكم مثلاً بعد تغيير الواقع الفاسد السابق، فكيف ستكون عليه صورة الواقع الجديد؟

وهكذا الأمر بالنسبة إلى القواعد الجماهيرية التي ألفت الوضع الفاسد السابق، حيث ستجد من الصعب بالنسبة إليها أن تعيش واقعاً مختلفاً يتصادم مع رغباتها الشخصية ومصالحها الآنية في صورة مشابهة لما في قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا

مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٢١﴾ .
 وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام كما في (الأمالي) للشيخ
 المفيد أنه قال: (كان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول
 للناس بالكوفة: يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ، أَتُرُونِي لَا أَعْلَمُ مَا يُصْلِحُكُمْ؟
 بَلَى، وَلَكِنِّي أَكْرَهُ أَنْ أَصْلِحَكُمْ بِفَسَادِ نَفْسِي) ^(٣) .
 * إصلاح باطل:

ويمكن أن نفهم كلامه عليه السلام إلى أنه إشارة إلى ما ألفوه من
 المحسوبة والطبقية والتعصب العرقي وغير ذلك من عناوين
 أفسدتهم، وما عادوا قادرين على التخلص منها، ويعتبرون أن
 صلاح حالهم بعودة تلك الصور من الفساد. وقد روى الشيخان
 المفيد والطوسي كما في (بحار الأنوار): (أن طائفة من
 أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مشوا إليه عند
 تفرق الناس عنه وفرار كثير منهم إلى معاوية طلباً لما في يديه
 من الدنيا، فقالوا: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اعْطِ هَذِهِ الْأَمْوَالَ وَفَضَّلْ
 هَؤُلَاءِ الْأَشْرَافَ مِنَ الْعَرَبِ وَقْرِيشَ عَلَى الْمَوَالِي وَالْعَجَمِ وَمَنْ
 نخاف عليه من الناس فراره إلى معاوية، فقال لهم أمير
 المؤمنين عليه السلام: أَتَأْمُرُونِي أَنْ أَطْلُبَ النِّصْرَ بِالْجُورِ؟ لَا وَاللَّهِ مَا

أفعل ما طلعت شمس ولاح في السماء نجم، والله لو كان مالهم لي لو اسيت بينهم، وكيف وإنما هو أموالهم؟^(٤).

كما يمكن أن نفهم كلامه السابق بأنه يعني اللجوء لاستخدام القوة المفرطة التي تلحق العقوبة بالبرئ والظالم، وبالفاسد والصالح، لضبط الأوضاع وإخراص الألسن وبما يجعلهم في خوف من الحكم، وفي انضباط في الطاعة - ولو لأمد - وهو ما كانوا يتصورون أنه يحقق صلاحهم.. تماماً كما يردد البعض «أن أهل العراق مثلاً لا ينفع معهم شخص إلا مثل صدام!» ويؤيد هذا المعنى ما جاء في نص رواه المفيد في (الإرشاد) أنه عليه السلام قال: (وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ الَّذِي يُصْلِحُكُمْ هُوَ السَّيْفُ، وَمَا كُنْتُ مُتَحَرِّياً صَلاحَكُمْ بِفَسَادِ نَفْسِي، وَلَكِنْ سَيُسَلِّطُ عَلَيْكُمْ بَعْدِي سُلْطَانٌ صَعْبٌ، لَا يُوقِّرُ كَبِيرَكُمْ، وَلَا يَرْحَمُ صَغِيرَكُمْ، وَلَا يُكْرِمُ عَالِمَكُمْ، وَلَا يَقْسِمُ الْفَيْئَ بِالسَّوِيَّةِ بَيْنَكُمْ، وَلَيَضْرِبَنَّكُمْ، وَلَيَذَلَّنَّكُمْ، وَلَيَجَرَّتْكُمْ فِي الْمَغَازِي، وَلَيَقْطَعَنَّ سُبُلَكُمْ، وَلَيَجْمَعَنَّكُمْ عَلَى بَابِهِ، حَتَّى يَأْكُلَ قَوِيَّكُمْ ضَعِيفَكُمْ ثُمَّ لَا يُبْعِدُ اللَّهُ مَنْ ظَلَمَ، وَلَقَلَّ مَا أَدْبَرَ شَيْءٌ فَأَقْبَلَ، وَإِنِّي لِأُظَنُّكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ، وَمَا عَلَيَّ إِلَّا النَّصْحُ لَكُمْ)^(٥).

ويبدو أن الإمام علي عليه السلام كان يكرر هذه المقولة بلحاظ قول الإمام الصادق عليه السلام: (كَانَ... يَقُولُ)، وأن ذلك التكرار جاء بناء على تكرار طلب البعض منه أن يسير بتلك السيرة، ولكنه كان يكرر رفضه المطلق لذلك وهو القائل: (وَمَنْ ضَاقَ عَلَيْهِ الْعَدْلُ، فَالْجَوْرُ عَلَيْهِ أَضْيَقُ)^(١)، لأن ما يتصورون أن فيه صلاحهم، سيكون أثراً محدوداً وعلى حساب مفسد كثيرة مترتبة عليها بما ستضيق معها الحياة عليهم بعد أن تتغلغل في وجودهم وتتحكم في مفصل حركتهم في الحياة.

ولذا فإن ترسيخ ثقافة الإصلاح لا يتم بخطب حماسية أو حملة إعلامية مؤطرة في حدود زمنية قصيرة، بل يتطلب الصبر والحزم والمثابرة والإصرار والمصداقية والإبداع على المستوى التعليمي والإعلامي والتوعوي والتطبيقي والجزائي والتشريعي حتى تتغلغل المفاهيم الجديدة بدلا من القديمة، ولربما احتاج الأمر إلى تبدل جيل، ليأتي جيل مبني على تلك المفاهيم المعدلة، كما حصل بالنسبة إلى أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية، وكما حصل من قبل بالنسبة إلى بني إسرائيل في التيه.

❁ الإمام الحسين وثقافة الإصلاح:

ونحن عندما ندرس حركة الإمام الحسين عليه السلام بعد علمه بموت معاوية لتغيير الواقع الفاسد، نجد العديد من التصريحات والكلمات والوصايا التي تحاول أن تزرع ثقافة إصلاحية توضح أهداف النهضة الحسينية من جهة، وتعريّ الواقع الفاسد، وتبين سبيل التغيير إلى الأفضل، كنموذج قابل للتطبيق عبر الزمان، ومتناسب مع المبادئ والقيم الإسلامية والإنسانية.

ففي المدينة في بيت الوالي الوليد بن عتبة وبعد مطالبته للإمام الحسين عليه السلام بالبيعة ليزيد يقول الإمام كما جاء في كتاب الفتوح لابن أعثم: (إنا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحل الرحمة وبنا فتح الله وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب خمر قاتل النفس المحرمة معلن بالفسق، مثلي لا يبايع لمثله)^(٧).

ثم يقرر الإمام الخروج من المدينة إلى مكة مع نفر من أهل بيته، ولا يتركها حتى يكتب وصية يسلمها لأخيه محمد ابن الحنفية، تتضمن استنصاراً للمسلمين، وتبياناً لأهداف حركته، وهي من أهم الوثائق الخاصة بالنهضة الحسينية، وتناولناها

بالتفصيل في الليلة الأولى، وفيها: (.. وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب النجاح والإصلاح في أمة جدي محمد ﷺ أريد أن أمر بالمعروف وأنهاي عن المنكر وأسير بسيرة جدي محمد ﷺ وسيرة أبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق وهو خير الحاكمين)^(٨).

وفي مكة كتب الإمام الحسين عليه السلام كتاباً إلى رؤساء الأخماس بالبصرة، جاء فيه كما في (تاريخ الطبري): (أما بعد فإن الله اصطفى محمداً ﷺ على خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته، ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به ﷺ، وكنا أهل وأولياءه وأوصيائه وورثته وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة وأحبينا العافية، ونحن نعلم أننا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا وتحروا الحق، فرحمهم الله وغفر لنا ولهم، وقد بعثتُ رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإنَّ السَّنة قد أُميتت، وإن البدعة

قد أحييت، وأن تسمعوا قولي وتطيعوا أمري أهدكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله^(٩).

كما أرسل مسلم بن عقيل ليتحمل جانباً من هذه المسؤولية في الكوفة، وانسأقت له الأمور، وتجاوب الناس معه، وتبنوا أهداف النهضة الحسينية، وتحركوا في هذا الاتجاه، ولكن سرعان ما انخذل أكثرهم تحت وطأة تضارب المصالح والخوف وما إلى ذلك، وهو ما ينسجم مع ما ذكرته مسبقاً من أن إصلاح الوضع الفاسد يحتاج إلى عمل طويل وشاق، ولربما يتخاذل أو يبذل المتحمسون تحت ظروف معينة.

وفي العراق في منزل (البيضة) روى الطبري أنه: (خطب الحسين أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إن رسول الله ﷺ قال من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله ناكثاً لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله ﷺ يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله. ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفئ وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غير...) ^(١٠).

وبرواية ابن أعثم أن هذا المضمون صدر ضمن كتاب كتبه إلى أهل الكوفة أول وصول الإمام إلى كربلاء كما ذكرنا مسبقاً. والجمع بين الأمرين مقبول.

وهكذا قام ﷺ في يوم عاشوراء بإلقاء خطبتين - كما في تاريخ الطبري - ففي المرة الأولى: (نادى بأعلى صوته بصوت عال دعاء يسمع جل الناس: أيها الناس، اسمعوا قلوبي ولا تعجلوني حتى أعظكم بما لحق لكم علي، وحتى أعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدقتم قلوبي وأعطيتموني النصف كنتم بذلك أسعد ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا مني العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون، إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين..).

ثم إنه ﷺ أراد أن يقنعهم بأكثر من منطلق يمكن أن يقبلوه وينطلقوا من خلاله لنصرة الحق، فبدأ بالمنطق الرسالي حيث قال: (... أما بعد، فانسبونني فانظروا من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها فانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ أأست

ابن بنت نبيكم ﷺ وابن وصيه وابن عمه وأول المؤمنين بالله والمصدق لرسوله بما جاء به من عند ربه؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي؟ أو ليس جعفر الشهيد الطيار ذو الجناحين عمي؟ أولم يبلغكم قول مستفيض فيكم أن رسول الله ﷺ قال لي ولأخي هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدقتموني بما أقول وهو الحق والله ما تعمدت كذباً مذ علمت أن الله يمقت عليه أهله ويضر به من اختلقه، وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري أو أبا سعيد الخدري أو سهل بن سعد الساعدي أو زيد بن أرقم أو أنس بن مالك يخبروكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله ﷺ لي ولأخي، أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟ (...).

فالمنطق العشائري حيث قال: (فإن كنتم في شك من هذا القول أفتشكون أثراً ما أني ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري منكم ولا من غيركم. أنا ابن بنت نبيكم خاصة).

فالمنطق الأخلاقي، حيث قال: (أخبروني، أطلبوني بقتيل

منكم قتلته أو مال لكم استهلكته أو بقصاص من جراحة؟...
يا شبت بن ربي ويا حجار بن أبجر ويا قيس بن الأشعث ويا يزيد
ابن الحارث، ألم تكتبوا إليّ أن قد أينعت الثمار وأخضر الجناب
وطمت الجمام، وإنما تقدم على جندك لك مجند فأقبل؟).

ولما أنكروا رد عليهم قائلاً: (سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم،
ثم قال: أيها الناس إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى
مأمني من الأرض. قال: فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل
على حكم بني عمك؟ فإنهم لن يروك إلا ما تحب، ولن يصل
إليك منهم مكروه. فقال له الحسين: أنت أخو أخيك، أتريد
أن يطلبك بنو هاشم بأكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا
أعطيهم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر إقرار العبيد. عباد الله إني
عذت بربي وربكم أن ترجمون، أعوذ بربي وربكم من كل متكبر
لا يؤمن بيوم الحساب)^(١). وهنا لربما تتساءل: كيف يطلب
الإمام الحسين عليه السلام منهم أن يدعوهم يترك ساحة المعركة؟
ألم يكن مصمماً على الشهادة من أجل أن يهز ضمير الأمة
ويخرجها من غفلتها وسباتها؟ فكيف إذاً يطلب ذلك منهم؟

والجواب: أننا يجب أن ندرك بوضوح أن الإمام عليه السلام - وفي

المقام الأول - هو صاحب مشروع ثوري إصلاحي، أراد من خلاله الغلبة على عدوه والانطلاق مع أنصاره ومؤيديه نحو تغيير الواقع وإصلاحه من خلال مواجهة نظام الحكم والثورة عليه واقتلعه من جذوره وتخليص الناس من الواقع الفاسد الذي كانوا يعانون منه، وفي نفس الوقت يهابونه وقد أذلوا رقابهم له.. فإن لم يتسنّ له ذلك، فلا بديل عن المواجهة الدامية وبذلك الصورة البطولية من خلال المواجهة غير المتكافئة مع العدو.. وهذا يفسر لنا لم يطلب منهم الإمام أن يدعوه لينصرف، فهو يبحث عن فرصة أخرى وأنصاراً آخرين كي ينطلق من خلالهم لتحقيق الهدف الذي من أجله قد خرج أساساً إلى العراق.

✽ الخطبة الثانية:

ثم خطب في عاشوراء ثانية - كما في تاريخ دمشق - محاولاً فتح عقولهم أمام الحقيقة التي تتمثل في هول ما سيقدمون عليه وحجم الجريمة التي سيرتكبونها في ما لو لم يغيروا من موقفهم في اللحظة الحاسمة.. إلا أنه ﷺ استعمل أسلوباً قاسياً هذه المرة، فلعل لهذا الأسلوب أن يجدي نفعاً مع قلوبهم القاسية، وذلك من خلال المحاور التالية:

• التذكير بقبح نقض المواثيق والعهود: (تباً لكم أيتها الجماعة و ترحاً، أحين استصرختمونا ولهين فأصرخناكم موجفين شحذتم علينا سيفاً...).

• خطأ الاختيار: (سيفاً كان في أيماننا، وحششتم علينا ناراً قد حناها على عدوكم وعدونا، فأصبحتم إلماً على أوليائكم ويداً عليهم لأعدائكم، بغير عدل رأيتموه بثوه فيكم ولا أصل أصبح لكم فيهم، ومن غير حدث كان منا ولا رأي يفيل فينا، فهلا لكم الوليات إذا كرهتموها تركتموها والسيف مشيم والجأش طامن والرأي لم يستخف).

• استثارة مشاعر عزة النفس والغيرة على الدين: (ولكن استصرعتم إلينا طيرة الدبا وتداعيتم إلينا كتداعي الفراش قيحاً وحكة وهلوفاً وذلة لطواغيت الأمة وشذاذ الأحزاب ونبذة الكتاب وغضبة الآثام وبقية الشيطان ومحرفي الكلام ومطفئي السنن وملحقي العهرة بالنسب وأسف المؤمنين ومزاح المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون. فهؤلاء تعضدون وعنا تتخاذلون أجل والله الخذل فيكم معروف

وشجت عليه عروقكم واستأزرت عليه أصولكم فأفرعكم، فكنتم أحبث ثمرة شجرة للناس وأكلة لغاصب. ألا فلعنة الله على الناكثين الذين ينقضون الأيمان بعد توكيدها وقد جعلوا الله عليهم كفيلاً).

• التأكيد على موقفه الحاسم الذي لا رجعة فيه حتى النفس الأخير: (ألا وإن البغي قد ركن بين اثنتين بين المسألة والذلة وهيئات منا الدنية أبى الله ذلك ورسوله والمؤمنون وحجور طابت وبطون وأنوف حمية ونفوس أبية أن تؤثر مصارع الكرام على ظئار اللئام. ألا وإني زاحف بهذه الأسرة على قلة العدد وكثرة العدو وخذلة الناصر ثم تمثل:

فإن نهزم فهزامون قدما وإن نهزم فغير مهزمينا
وما إن طبنا جبن ولكن منايانا وطعمة آخرينا

• المحاولة الأخيرة بتخويفهم من المصير البائس الذي ينتظرهم في ما لو استمروا في نية الحرب: (ألا ثم لا لبثوا إلا ريث ما يركب فرس حتى تدار بكم دور الرحي ويفلق بكم فلق المحور عهدا عهدة النبي إلى أبي، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون)^(١٢).

* ختام البحث:

وإذا كانت النهضة الحسينية على صاحبها آلاف التحية والسلام قد انتهت ميدانياً باستشهاده وأغلب مَنْ ناصره في يوم عاشوراء، فلم تثمر مضامين النداءات التي أطلقها إلا عن نصرة عدد قليل من الناس، ولم يتمكن منس تغيير الواقع الإيماني والروحي والثقافي والأخلاقي البائس الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية آنذاك إلا في نطاق ضيق، غير أنها مثلت مادة خصبة اعتمد عليها مَنْ جاء بعده لتغيير الواقع الفاسد.

فكان شعار (يا لثارات الحسين) منطلقاً لبث روح الإباء والعزة والقوة والصمود والصبر في وجه أعنى التحديات التي يمكن أن تواجهها الشعوب وهي تصارع الباطل والفساد الذي يسلبها حقوقها وكرامتها، وينتهك حرمتها ومقدساتها، ويفتك بمقومات ازدهارها ونمائها.

إن أي عملية إصلاح تستلزم تضحيات وخسائر، وتواجهها صعوبات وعوائق، وقد قال ﷺ في بيان السنة الاجتماعية التي لا بد وأن تعاني منها المجتمعات الإيمانية في طريق الإصلاح: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا

مَنْ قَبْلَكُمْ مَسَّتْهُمْ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١٣﴾، وهذا
ما جعل الأمر في غزوة الأحزاب كما قال ﷺ: ﴿وَلَمَّا رَأَى
الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ في ضخامة وقوة جيش تحالف الكفر
والباطل، ﴿قَالُوا﴾ وبكل طمأنينة وثبات: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ ^(١٤).
إن هذه التضحيات لا تعطي ثمارها سريعاً بمقاييسنا الزمنية،
ولكنها حتماً ستكون شجرة طيبة تمتد بجذورها في الأعماق
فتترسخ، وتمتد في الهواء فترتفع، وسيأتي اليوم الذي ستعطي
فيها ثمارها، ولو بعد حين.. وقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا
فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ^(١٥).



المصادر والتعليقات الختامية:

- (١) يونس: ٧٨ .
- (٢) الأعراف: ١٣٨ .
- (٣) نهج البلاغة: خ ٦٩ .
- (٤) المجلسي: بحار الأنوار - ج ٩٣ - باب ١٨ .
- (٥) أحمد بن علي الطبرسي: الاحتجاج - ج ١ - ص ٢٥٦-٢٥٧ .
- (٦) نهج البلاغة - خ ١٤ .
- (٧) أحمد بن أعثم الكوفي: الفتوح - ج ٥ - ص ١٤ .
- (٨) ن.م. ص ٢١ .
- (٩) الطبري: تاريخ الأمم والملوك - ج ٣ - ص ٢٨٠ .
- (١٠) ن.م. ص ٣٠٤-٣٠٥ .
- (١١) راجع تاريخ الطبري في أحداث يوم العاشر من المحرم ٦١ هـ .
- (١٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق - ج ١٤ - ص ٢١٨-٢٢٠ .
- (١٣) البقرة: ٢١٤ .
- (١٤) الأحزاب: ٢٢ .
- (١٥) إبراهيم: ٢٤-٢٥ .

